

موسى عليه السلام

عناصر الموضوع

٨	التعريف بموسى عليه السلام
١٢	ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم
١٣	صفاته وأخلاقه عليه السلام
١٨	موسى عليه السلام قبل النبوة
٢٧	تكليف موسى عليه السلام بالنبوة
٣١	دعوته عليه السلام لضرعون وقومه
٣٩	آيات موسى عليه السلام ومعجزاته
٤٢	موسى عليه السلام والسحرة
٤٦	نجات موسى عليه السلام ومن معه
٥١	موسى عليه السلام ورؤية ربه
٥٨	موسى عليه السلام والعباد الصالح
٦٣	الدروس المستفادة من قصة موسى

التعريف بموسى عليه السلام

أولاً: اسمه ونسبه عليه السلام:

لم يذكر القرآن شيئاً عن نسب نبي الله موسى عليه السلام ولا عن والده أو والدته، لكن ذكر في غير موضع بالقرآن الكريم أن موسى أخُ لهارون عليه السلام وقد توهم البعض كالقرظي^(١) أنهما أخوان للسيدة العذراء مريم، لقوله عز وجل على لسان بني إسرائيل: ﴿يَتَأَخَذَ هٰذِرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، ولتشابه اسمي أبي موسى وأبي مريم، فكلاهما اسمه (عمران).

والحقيقة أن التباعد الزمني بين موسى وعيسى عليه السلام أمرٌ ثابت بالقرآن الكريم، يقول الله عز وجل في قصة داود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْآلِ مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ آلِهِمْ أَيْمًا لَنَا يَا لَيْكَا نَقْتُلُكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فداود عليه السلام كان بين موسى وعيسى عليه السلام.

ثانياً: زمانه عليه السلام:

ليس في القرآن الكريم ما يمكن من خلاله تحديد الفترة الزمنية التي ولد فيها نبي الله موسى عليه السلام بدقة، لكن الثابت في القرآن أن مبعثه كان سابقاً على نبي الله داود عليه السلام، وتحدثت بعض الآيات القرآنية عن جانب من الزمن الذي ولد فيه، حيث عاش بنو إسرائيل فترة طويلة في ظل الاضطهاد الفرعوني بسبب من تأييدهم للغزاة الهكسوس الذين حكموا مصر وتآمرهم على المصريين، واستحقارهم لعبادة المصريين، فضلاً عن عقيدتهم بأنهم شعب الله المختار^(٢).

وبلغ بهم التنكيل أن أصدر فرعون قراراً يقضي بذبح أبناء الإسرائيليين واستحياء نسائهم وتسخيرهم في أعمال الخدمة الشاقة، وفي سورة القصص بعض التفصيل لمعاناتهم في هذه الفترة العصيبة من تاريخ بني إسرائيل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٢٠١.

(٢) الدين وحاجة الإنسانية إليه عبر الرسالات الإلهية، محمود مزروعة، ص ١٤٦ - ١٤٧.

يقول تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَمًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَزُرِّيذُ أَنْ نَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنَمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَزُرِّي فِرْعَوْنَ وَهَمَكُنْ وَخُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٣-٦].

ونطالع في السورة الثانية من الكتاب الكريم تذكير المولى جل جلاله لبني إسرائيل بإنجائهم من هذا الاضطهاد ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].
ومثلها: ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١].

وقد روى الطبري عن ابن إسحاق قوله: «كان فرعون يعذب بني إسرائيل فيجعلهم خدماً وخولاً، وصنفهم في أعماله، فصنف بينون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله: فعليه الجزية -فسامهم- كما قال الله عز وجل سوء العذاب»^(١).

وروي أن فرعون كان قد رأى رؤيا هالته؛ رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة... فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرادلها^(٢).

ولذلك كان وصف القرآن الكريم لهم ﴿الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضَعُّونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].
ومن الله جل جلاله على بني إسرائيل بالنجاة في غير موضع بالقرآن، من مثل قوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ فَدَأْبَجِنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ﴾ [طه: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [الدخان: ٣٠].

ليس هذا فحسب؛ ففي موضع آخر يذكر نبي الله موسى عليه السلام بني إسرائيل بنعمة الله السابغة عليهم بأن كتب لهم النجاة من السخرة التي عاشوا أمدا بعيدا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٣٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١١٦ بتصرف.

الْعَذَابِ وَيَذِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ [إبراهيم: ٦].

ثالثًا: مكانته:

نص القرآن الكريم في أكثر من آية على مكانة موسى الكليم عليه السلام بين الأنبياء، وأشار إلى عظم هذه المكانة؛ فقال تعالى مجملًا هذه المناقب ومبينًا هذه المكانة: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

والوجه هو صاحب المكانة والمنزلة الرفيعة^(١).

ومن أكثر الآيات تأكيدًا على هذه المكانة العظيمة قول الله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِّن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِمَّن رَّحِمْنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥١-٥٣].

ويمكننا إيجاز بعض مناقبه عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم على النحو التالي: أولاً: أنه كان (مخلصًا) لقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١] أي أن الله تعالى اصطفاه واستخلصه.

ثانيًا: جمعه بين الرسالة والنبوة عند من فرق بينهما لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]^(٢).

ثالثًا: تكليم الله جل جلاله له، لقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. رابعًا: علو مكانته، لقوله عز وجل: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]. وفيه رايان: «قرب المكان»، وقيل: «قرب المنزلة»^(٣)، وسواء أكان هذا أم ذلك فإنما يدل على علو مكانته عليه السلام.

خامسًا: اصطفاء الله تعالى له، وذلك لقوله ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ولقوله سبحانه: ﴿وَأَنَا أَخَفَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/٤٠١، الكشاف، الزمخشري ٣/٥٨٦.
 (٢) قال فخر الدين الرازي «ولا شك أنهما وصفان مختلفان»، انظر: مفاتيح الغيب ٢١/٥٤٨.
 (٣) يقول ابن عطية: «قال الجمهور هو تقريب التشريف بالكلام والنبوة»، وقال ابن عباس: بل أدنى موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام، وقاله ميسرة، وقال سعيد: أردفه جبريل، و«النجي»، فعيل من المناجاة وهي المسارة بالقول، وقال قتادة: نجياً معناه نجا بصدقة» المحرر الوجيز ٤/٢٠.

سادسًا: إلقاء محبة الله عليه: ودليل ذلك قوله: ﴿وَأَقْبَتَ عَلَيْكَ حَبَّةَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [طه: ٣٩].
سابعًا: كونه من أولي العزم من الرسل: فجل المفسرين أن موسى عليه السلام من
أولي العزم من الرسل الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾
[الأحقاف: ٣٥].

ثامنًا: مكانته في الإسلام: (كان النبي صلى الله عليه وسلم حفيًا به، فحين قدم المدينة
مهاجرًا، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ فسألهم: ما هذا؟! قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا
يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم؛ فصامه موسى. قال صلى الله عليه وسلم: (أنا أحق
بموسى منكم)؛ فصامه وأمر بصيامه^(١)، وفي رواية أخرى: (نحن أولى بموسى منكم)^(٢).
ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيله على موسى الكليم لما له من منزلة عند ربه
تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (استب رجلان، رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من
اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى
موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى
النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي صلى الله عليه
وسلم المسلم، فسأله عن ذلك، فأخبره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني على
موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش
جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)^(٣).
على أن تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام لخير دليل على مكانته العالية الرفيعة عند
ربه وبين خلقه، وهو الأمر الذي نص عليه القرآن في أكثر من موضع، وأكدته الله تعالى تأكيدًا
في قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، رقم ١٨٧٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
- (٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ١٩١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
- (٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة، رقم ٢٢٤٥.

ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٧١-٦٧، ٦١-٥١
المائدة	٢٥-٢٠
الأعراف	١٦٠-١٥٥، ١٥٩-١، ٣
يونس	٨٩-٧٥
هود	٩٧-٩٦
إبراهيم	٩-٥
الإسراء	١٠٤-١٠١
الكهف	٨٢-٦٠
مريم	٥٣-٥١
طه	٩٨-٩
المؤمنون	٤٩-٤٥
الفرقان	٣٦-٣٥
الشعراء	٦٨-١٠
النمل	١٤-٧
القصص	٤٨-٣
الصفات	١٢٢-١١٤
غافر	٢٧-٢٣
الزخرف	٥٦-٤٦
الذاريات	٤٠-٣٨
النازعات	٢٥-١٥

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولاً: صفاته الخَلْقِيَّة:

الزط)^(٢)، وفي حديث آخر لابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً)^(٣)، وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان: (رجل الرأس)^(٤).

ثانياً: صفاته الخَلْقِيَّة:

١. المروءة.

تتجلى هذه الصفة في عدة مواطن، منها ما حدث مع الرجل الذي من شيعته حين استنصره على المصري.

يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَى الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ [القصص: ١٥].

ليس في القرآن ما يدل على شيء من أوصاف موسى عليه السلام الخلقية، سوى آية تشير إلى قوته البدنية التي ميزته.

وأورد ابن إسحاق ما يفيد قوة موسى عليه السلام وبسطته، يقول: «وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق، وشدة في البطش؛ فغضب بعدوهما فنازعه (فوكزه موسى) وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله»^(١).

وفي السنة النبوية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (وأما موسى فآدمٌ جسيمٌ سبطٌ كأنه من رجال

جامع البيان، الطبري ١٩/٥٤٠.

(١) وقد اختلف المفسرون في معنى الوكز، فقيل: «الدفع بأطراف الأصابع، وقيل بجمع الكف». مفاتيح الغيب ٢٤/٢٠٠، «فوكز أي فطعن ودفع بيده العدو، وهو رجل لم يعط أحد من أهل ذلك الزمان مثل ما أعطي من القوى الذاتية والمعنوية». نظم الدرر، البقاعي ١٤/٢٥٦، وقيل إن «الوكز واللکز واللهمز واللهد بمعنَى واحدٍ، وهو الضرب بجمع الكف» الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود، رقم ٣٢٠٧.

قال ابن حجر: وهم قومٌ غير غلاظ معروفون بالطول والأدمة. فتح الباري ٦/٤٢٩، ٦/٤٨٤، والأدمة هي السمرة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٠١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث ابن عباس، رقم ٢٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، رقم ٣٢٠٦. ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث أبي هريرة أيضًا، رقم ٢٥٠.

شِعْرِيهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ [القصص: ١٥].

فمروءة موسى عليه السلام منعه من تجاهل استغاثة رجل من بني قومه، ورغم أنه عليه السلام ندم فيما بعد على تسرعه وانفعاله الذي أدى إلى قتل المصري؛ إلا أنه كان دليلاً على مروءته وشهامته.

وفي قصة البنتين اللتين سقى لهما دليل على مروءته؛ فلم يستطع عليه السلام أن يتجاوز أزمتهما، أو يتخلى عن معونتهما، كما تجلت مروءته في عدم انتظار الأجر من أحد ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾ [القصص: ٢٤].

وكانت هذه المروءة أحد الأسباب لأن يخطبه الرجل لابنته.

٢. الوفاء بالوعد.

جری اتفاق بين الشيخ الكبير وموسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ بِحَبْلِ جَنَّةٍ فَيَكُنَّ أُمَّتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا نَقُولُ وَكَيْدٌ ﴿٢٨﴾ [القصص: ٢٧-٢٨].

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾

عَانَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ [القصص: ٢٩].

والشاهد أن موسى عليه السلام قد أوفى بعهده مع الشيخ.

٣. قوة الحججة والمنطق.

يقدم لنا القرآن في أكثر من موضع حوارات موسى عليه السلام مع فرعون، وفيها دليل على قوة حجته ومنطقه، ولنا أن تتمثل في ذلك حوار مع فرعون الذي سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ﴿٥١﴾ [طه: ٥١]؛ فجاءت إجابته شافية كافية: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٥٤﴾ [طه: ٥٢-٥٤].

فقد استخدم عليه السلام مفردات البيئة التي يعيش فيها (الأرض، السماء، المطر، النبات، الأنعام) ليقرب الصورة للمخاطبين (فرعون وملاه) وهذا أوقع في تعجزهم وإقامة الحججة عليهم، وبلغ به التحدي مداه عندما قال له فرعون: ﴿قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَيْهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ﴾ ﴿٦١﴾ [الشعراء: ٢٩].

فجاء رده منطقيًا: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ﴾

وتنقل لنا الآيات صورة حية من تضرعه إلى الله تعالى واستعانته به في قوله جل جلاله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي أَتَّبِعُكَ أَيَّمَا فَعَلِ السَّفَهَاءِ إِنَّمَا إِنَّ هِيَ إِلَّا فَنَنَّاكَ نُضِلُّ بِهَا مَن نَّشَاءُ وَتَهْدِي مَن نَّشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَكَتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الذَّنْبِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ ﴿١﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦].

وقد تجلّى تعلق موسى عليه السلام بربه حتى في أشد المواقف وأكثرها ضيقاً وكرهاً، فعندما هرب وأتباعه من فرعون؛ أدركهم وجنوده عند البحر؛ فدب الخوف في قلوب أصحاب موسى وظنوا أنهم أحيط بهم، لكنه عليه السلام صاح وكله ثقة في ربه وخالقه: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

٥. حب الله والاستئناس به.

توضح لنا الآيات الكريمة كيف كان موسى عليه السلام كثير الأنس بربه جل جلاله، وينقل لنا القرآن كيف أسهب في الحديث مع مولاه عندما سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٧].

وهو سؤال كما قيل: «ليؤنسه ويبسطه بالكلام»^(١)، ويستوجب إجابة بكلمة واحدة (عصا) أو كلمتين نحو (هذه عصا)؛ لكن موسى عليه السلام وجدها فرصة فأفاض

بِشَىءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأَتَى بِهِ إِذْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ [الشعراء: ٣٠-٣١].

فألزم فرعون الحججة وتحدها في يوم يجتمع فيه الناس ليشاهدوا بأعينهم. ٤. اللجوء إلى الله واليقين به.

من يطالع قصة موسى عليه السلام يعرف مدى تعلق قلبه بخالقه تعالى، فإليه يكل أمره يستنصره على أعدائه، ويطلب منه النجدة والمعونة، وتكشف هذه الآيات عن جانب كبير من هذا التضرع.

يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمِ إِنِ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا يُيُوتُكُمْ قِيسَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٤-٨٩].

فقد طالب قومه بالتوكل على الله، ثم دعا ربه تعالى أن يعذب فرعون وقومه بسبب تكبرهم وتكذيبهم.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٧/٢.

في القول ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

لقد استرسل موسى عليه السلام كما يقول البقاعي: «مستأنسا بلذيد المخاطبة قوله بياناً لمنافعها خوفاً من الأمر بالقائها كالنعل، أي: أعتمد وأرتفق وأتمكن إذا أعيتت، أو عرض لي ما يحوجني إلى ذلك من زلق أو هبوط أو صعود أو طفرة أو ظلام ونحو ذلك؛ ثم ثني بعد مصلحة نفسه بأمر رعيته فقال: ﴿واهش﴾ أي أخبط الورق»^(١).

ويلغ هذا الاستئناس ذروته عندما طلب موسى عليه السلام من ربه عز وجل أن يراه، وهو طلب عجيب ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ. قَالَ رَبِّ أَرِنِي لِئَلْيَبْصُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَجَدَ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ سُجَّدًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٦. التواضع والحرص على التعلم.
عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن: (موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فستل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبدٌ بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أي رب ومن لي به؟ وربما قال سفيان: أي رب وكيف لي

به قال تأخذ حوتاً فتجعله في مكنلٍ حيثما فقدت الحوت فهو ثم...)^(٢).

فاصطحب غلامه يوشع بن نون ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ١٦ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ١٧ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ١٧ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ ١٨ ﴿قَالَ سَتَدِينُنِي وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ١٩ ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَأْذِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٥-٧٠].

تقدم لنا الآيات السابقة جانباً من تواضع موسى بن عمران عليه السلام بداية من التماسه العلم من العبد الصالح ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾، وهي عبارة تشير إلى خفض الجناح من جانبه، ووضع نفسه في موضع المرید من شيخه، وكذا نزوله على شروط المعلم لصحبته، وفي هذا درس بالغ لكل طلاب العلم على النحو الذي ستظهره هذه الدراسة في مبحث مستقل.

٧. النهي عن المنكر.

رغم الوعد الذي وعده موسى عليه السلام للعبد الصالح بأن يصبر على صحبته ولا يكثر من سؤالاته إلا أنه لم يطق صبراً بعدما رآه يخرق السفينة: ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث العبد الصالح مع موسى عليه السلام، رقم ٣٢٢٠.

(١) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٠.

ناشد قومه قائلاً: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ
الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا عِلَّآ
أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٧١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ
فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا
مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ
﴿٧٢﴾ [المائدة: ٢١-٢٢].

لقد راعتهم قوة أعدائهم الجبارين،
ونسوا أن النصر ليس بالكثرة ولا بالعتاد؛
وتناسوا وصية موسى عليه السلام لهم
﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ
مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

وقد أورد القرطبي أن بني إسرائيل عندما
امتنعوا عن الجهاد، عوقبوا بالتيه أربعين
سنة، إلى أن مات أولئك العصاة ونشأ
أولادهم، فقاتلوا الجبارين وغلّبوهم (١).

وعندما ذهب لملاقة العبد الصالح
قال لفتاه يوشع بن نون: ﴿لَا أَبِحُ حَقِّي
أَبْلَغَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾
[الكهف: ٦٠].

أي: لا أزال أسير حتى أبلغ المكان
الموعود ولو سرت في سبيله أزماناً طويلة،
وذلك منبئ عن دأبه وارتفاع همته.

هذه هي بعض صفات نبي الله موسى
عليه السلام التي نص عليها القرآن الكريم
في كثير من المواضع، وهي صفات بشرية،
وليست من الخوارق التي لا يدركها
الإنسان مهما سعى إليها واجتهد، وفي ثنايا
(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٢٦.

إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَا لِتُغْرِقَ
أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
لِإِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي
بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرِيضْنِي مِنْ أَمْرِ عُسْرًا ﴿٧٣﴾
[الكهف: ٧١-٧٣].

وقتل الغلام: ﴿فَأَنطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا
فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ
شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٧﴾
[الكهف: ٧٤-٧٦].

وإقامة الجدار: ﴿فَأَنطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَيَا أَهْلَ
قَرْيَةٍ أَسْتَطْمِئَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا
فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقُضَ فَاقَامَهُ. قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَنَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٧].

فلم يترك موسى عليه السلام فرصة إلا
نهى فيها -عما رآه منكراً- قبل أن يتبين له
الأمر، ومما عابه القرآن على بني إسرائيل
في غير موضع عدم نهيمهم عن المنكر لأنهم
﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ
فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾
[المائدة: ٧٩].

٨. قوة الإرادة.

وقد أسهم في اكتسابه هذه الإرادة الصلبة
كثرة المحن والتجارب التي مر بها منذ كان
رضيعاً وضعت أمه في الصندوق، وقبل ذلك
من يقينه الذي لا يفتر بربه تعالى، فعندما

موسى عليه السلام قبل النبوة

أولاً: نشأة موسى عليه السلام:

في ظروف بالغة القسوة، ولد الطفل موسى عليه السلام في قوم مهانين مستباحي الكرامة، فالرجال سخرهم فرعون الطاغية في أدنى الأعمال وأشقها يسومهم سوء العذاب، والنساء متهكة الحرمات، وعندما أدرك المخاض أم موسى زادها كرباً إلى كربها، وغماً على غمها، فمصير الطفل مهدد كغيره من أطفال بني إسرائيل الذكور الذين لم ينجوا من آلة القتل الغاشمة خوفاً على ملك فرعون وجاهه العريض من الضياع بعد نبوءة أو رؤية، على خلاف بين المفسرين وكذلك بين المؤرخين^(١)، وهو ما جعل الأم تضرع إلى ربها أن ينقذ وليدها من المصير المألوف آنذاك.

يصور القرآن الكريم كيف أراد تعالى لموسى عليه السلام شيئاً آخر غير مجرد الحياة التي هي أقصى ما تصبو إليه الأم الملتاعة، بل كل أم في هذا الزمان؛ ولا عجب؛ فقد صنعه عز وجل لنفسه وعلى عينه، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم، فقوله جل جلاله ﴿وَلَمَّا نَسَبْنا عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

(١) انظر: المحرر الوجيز ٢٧٦/٤، الجامع لأحكام القرآن ٢٤٨/١٣، تاريخ الأمم والملوك ٣٨٧/١، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١٣١/١.

هذه الدراسة إشارات إلى صفات أخرى ستتناولها في حينها، وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!!

ويفسر ابن جزى الغرناطي ذلك بقوله: «أي: استخلصتكم وجعلتكم موضع صنيعتي وإحساني»^(٣).

ولو استأنسنا بما كتبه البقاعي لقرأنا «ريبتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربي على طريقة من الطرائق لنفسي لتفعل من مرضاتي في تمهيد شرائعي وإنفاذ أوامري ما يفعله من يصنع للنفس من غير مشارك، فهو تمثيل لما حوله من منزلة التقريب والتكريم»^(٤).

فالعناية هنا تأهيل لموسى عليه السلام لمواجهة ما ينتظره من مهام جسام ومعاناة مع بني إسرائيل الذين لا يكفون عن الجدل. أوحى الله جل جلاله إلى أم الطفل موسى وحي إلهام لا وحي رسالة^(٥) ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَمَلْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّبِيهِ فِي آلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [القصص: ٧]، وما أعجب القدرة الإلهية! أم تخاف على ولدها من القتل فتؤمر بإلقائه في الماء، ويطمئنها الله ﴿وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧].

على ولدك؛ فإننا في قابل الأيام ﴿رَأَدُوهُ إِلَيْكَ وَجَاهِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، الذين اصطفيانهم للدعوة والرسالة.

إن وعد الله عز وجل لهذه المرأة نافذ

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٨/٢.

(٤) نظم الدرر ١٢/٢٨٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/٤٣.

منبئ بأن تربية الصغير ستكون لدنية بعنايته عز وجل بما يليق برسالته والمهمة التي ستلقى على عاتقه.

يقول الزمخشري: «لتربي ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به»^(١).

والكلام هنا كما قال الطاهر ابن عاشور «تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئاً لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه»^(٢).

ولأن ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

فقد كان من الضروري رعايته لأنبيائه وأصفياؤه، ولذا فقد من تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه العناية المبكرة التي لولاها لكان في مقام آخر لا يعلمه إلا الله، وذلك ظاهرٌ في قوله عز وجل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨].

وثمة نوع خصوصية في مولد موسى عليه السلام، يشير إليه قوله تعالى ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

وهو تأكيد للآية السابقة ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْشِي﴾.

(١) الكشاف ٣/١٤٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/٢٢٣.

وخوف آخر محتمل هو غرق الرضيع في المياه.

ثمة آيات في سورة طه تتحدث عن نجاة الرضيع وتورد تفاصيل أخرى.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَأُلْقِيهِ إِلَىٰ يَمِّ السَّاحِلِ بِأَخْذِهِ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ ۗ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٧-٣٩].

ففي الآيات أنه تعالى أوحى إلى أم موسى بوضعه في التابوت، وإلقائه في اليم الذي سيحملة إلى ساحل فرعون، الذي هو عدو لله عز وجل ولبنو إسرائيل ومنهم الرضيع، وما كان للطفل أن تكتب له النجاة إلا بتدبير إلهي محكم.

لكن.. كيف يصل الطفل إلى قصر فرعون الفاجر وتكتب له النجاة إلا عن طريق قلب زوجته؟!!

إنها المحبة التي ألقاها الله على موسى عليه السلام؛ ولا عجب فقد قال عز وجل: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي﴾ [طه: ٣٩].

واختلف المفسرون في تفسير هذه المحبة، فمن قائل بأنها جمال في الخلق وصف به، وقيل ملاحظة في عينيه، لكن ابن عطية ضعف هذا القول^(٢)، وهناك من يقول إنها محبة القابلة التي ولدت أمه، وقائل:

وماضي؛ لكنه يحتاج إلى قلب مطمئن يسلم بقضاء الله وقدره، وإلا فكيف لامرأة ضعيفة تكتم حملها نحو تسعة أشهر خوفاً من عسس فرعون أن تستجيب لمثل هذا الأمر وتقذف بابنها وفلذة كبدها في النهر وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا؟! لكن أم موسى كانت على ثقة متينة بموعود ربها تعالى لها ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجِئْتُهُم مِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وكما كانت حياة موسى عليه السلام معجزة - على النحو الذي سيتكشف بعد قليل - جاءت الآية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجِئْتُهُم مِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

معجزة في بيانها، فقد تضمنت أمرين ونهيين وبيارتين ولطائف أخرى يضيق المقام عن تفصيلها، وتوقف أمامها المفسرون، واشتهرت عند البلاغيين، ففرق الزمخشري بين خوفين: «أما الأول فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبتوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف»^(١)، فالآية تتحدث عن خوف من أمر واقعي هو القتل على يد الفراعين،

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٤.

(١) الكشاف ٣/٣٩٣.

يمكن لزوجة فرعون أن تخاطبه بهذه اللهجة فتقول له: هذا الولد قرة عين لي فحسب، أما أنت فلا؟ وإذا كانت قالت ذلك فلماذا لم تقل: عسى أن (ينفعني) أو (أتحذه) ولذا بصيغة المفرد؟ وما الذي يضطر فرعون إلى إبقاء ولدٍ من المفترض أنه سيسبب له المتاعب، لا شك أن فرعون استبقى الولد بناء على رغبة زوجته التي أحبته بعد أن ألقى الله عليه محبةً منه، ويظهر أنه وقومه كانوا على يقين أنه إسرائيلي، وإلا فما يضطر أمًا إلى التخلص من رضيعها الذكر إلا إذا كان مهددًا كأقرانه من بني إسرائيل؟ كما يظهر من قول امرأة فرعون ﴿لَا نَقْتُلُوهُ﴾ فمن ذا الذي جرى عليه القتل آنذاك سوى ذكور بني إسرائيل؟!

والحقيقة أن موسى عليه السلام كان بالفعل قرة عين لها، فقد كتب الله لها النجاة من فرعون وعمله الخبيث، وأشاد بها في كتابه الكريم؛ بل جعلها مضرب المثل للذين آمنوا.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ

لقال تعالى «تقتلون» بالنون. فلما جاء بغير نون علم أن الفاعل في الفعل «لا» إذ هي نهية، فهو مجزوم بها، فلا يجوز أن يفصل منه». انظر: كتاب إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر الأنباري، ص ٨٢٢، المكتفى في الوقف والابتداء، أبو عمرو الداني، ص ٤٣٥-٤٣٦.

محبة امرأة فرعون... إلخ^(١).
والراجح أنه القبول العام كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحبيه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبهه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)^(٢).

إن امرأة فرعون قد أحبته، وسعدت به، وقالت لفرعون: هذا الصغير ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِىَ وَلَكَ﴾، تقر به أعيننا وتسعد بها نفوسنا ﴿لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

فوافق فرعون ولم يكن يعلم أنه سيكون سبب هلاكه في الدنيا والآخرة ﴿فَالنَّظْمُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

وقد شاع بين بعض القراء في أيامنا هذه أن يقرأ ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِىَ وَلَكَ لَا﴾ بالوقوف على (لا)، وهذا من اللحن - كما يرى أبو زكريا الفراء - وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما^(٣)، وهي قراءة لا تستقيم عقلا؛ فهل

(١) جامع البيان ١٨/٣٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٨٨.

(٣) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/٣٠٣.

وقد ردوا على هذا بأن الوقف لو كان صحيحًا

أَبْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَيَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَيَجْنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

[التحریم: ١١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)^(١).

ولم يكن حبها غريزيًا كامرأة العزيز التي كان حبها ليوسف عليه السلام فضيحة لها حين راودته عن نفسه فاستعصم، وسار بحديثها نسوة المدينة، وصارت أقصوصة في فم الرايح والغادي.

لكن في الظل أما تتحرق شوقًا إلى ضم وليدها وغمره بعطفها وشموله بحنانها، ويصور القرآن حالة الاضطراب النفسي الذي عاشته على هذا النحو: ﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أُرْمِيهِمْ فَرِحًا إِنْ كَادَتْ تُنْبِئِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التقصص: ١٠].

قال البيضاوي: «فارغًا صفرًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٤٤٦٦.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٢.

وبقدرة الله جل جلاله أبي الصغير الرضاع من غير أمه ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [التقصص: ١٢]؛ وأخذوا يفتشون عن مرضعة،

وهنا تتدخل العناية الإلهية مرة أخرى فتقابلهم أخته التي خرجت لوعى تتلمس الأخبار حول مصير أخيها الرضيع ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصْحُونَ﴾ [التقصص: ١٢].

فرده الله إلى أمه الملتاعة ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التقصص: ١٣].

وتزداد يقينا في وعد الله تعالى، يقول البقاعي: «فكان كل ما أردته، فلما رآك هذا العدو أحبك وطلب لك المراضع، فلما لم تقبل واحدةً منهن بالغ في الطلب، كل ذلك إمضاءً لأمري، وإيقافاً لأمره به نفسه لا بغيره؛ ليزداد العجب من إحكام السبب»^(٣).
وهنا تتيقن أم موسى أن ولدها سيكون له شأن في قابل الأيام.

ظل الصغير غذي نعمة وترف في قصر فرعون، بعيداً عن معاناة قومه بني إسرائيل، وقد اختزل القرآن هذه الفترة فلم يتحدث عن شيء من تفصيلاتها، واختصر الفاصل الزمني من الرضاعة إلى بلوغ الأشد، وتحدث بعض المؤرخين عن تفصيلات

(٣) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٨.

الاختبار على إقبال الطفل على الجمرة أو حتى على لمسها لكان ذلك أمراً مستساعاً معقولاً.

ثانياً: قتل موسى عليه السلام للقبطي:

تدلنا الآيات على أن موسى عليه السلام ظل في بيت فرعون حتى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤].

ثم إن الله تعالى من عليه فاتاه ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

والحكم والعلم ليسا بالنبوة؛ وإنما هي من إرهاباتها؛ لأنه عليه السلام سيتورط بعد ذلك في قتل القبطي بطريق الخطأ.

إن القرآن يصور مشهد القتل ويوجز ما دار فيه من حوار بعيداً عن الإجمال والتفصيل، فموسى عليه السلام ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥].

في وقت كان الناس فيه في بيوتهم كوقت القيلولة، أو بين المغرب والعشاء، أو حتى في معابدهم يوم عيدهم؛ بل قيل متكرراً، على اختلاف بين المفسرين، كما اختلفوا حول المدينة وتعددت فيها الآراء^(٣)، لكن معلوم أن الحكام يتخذون لسكناهم بيوتاً خارج المدن على أطرافها، ليكونوا بأم من من شعوبهم، وتلك من تدابير الطغاة والمستبدين وعاداتهم، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا

أخرى في هذه المرحلة الزمنية، لكن ثمة إشكالية في الرواية التي أوردها البعض ومنهم الطبري، تقول الرواية: إن فرعون عندما حمله «أخذ موسى بلحيته ففتفها؛ فقال فرعون علي بالذباحين، هذا هو!! قالت آسية: ﴿لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَسْتَحِذَهُ وَوَلَدًا﴾، إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر امرأة أحلى مني، أنا أضع له حلياً من الياقوت، وأضع له جمراً؛ فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها فوضعت له طستاً من جمر؛ فجاء جبرئيل فطرح في يده جمرة؛ فطرحها موسى في فيه فأحرق لسانه فهو الذي يقول الله عز وجل: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٣٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٣٨﴾﴾^(١)، وهذه الرواية التي ذكرها غير واحد من المؤرخين والمفسرين، ونسبها النيسابوري إلى الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما^(٢).

نصدق أن فرعون قد يزعجه ما فعله الطفل لأنه شخصية سلطوية مجنونة بالعظمة، إلا أن القصة لا يمكن أن تستقيم عقلاً، فكيف لطفل أن يمسك بالجمرة المتوقدة؛ بل ويضعها في فيه؟! ولو اقتصر

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٥٩.

(١) تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٩٠.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٥٣٧.

رَجُلَيْنِ يَفْتَنَانِ هَذَا مِنْ شَيْعِنِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴿﴾
[القصص: ١٥].

وكانت معركة تدور رحاها بين مصري وإسرائيلي، وبطبيعة الحال كان الثاني فيها أضعف الطرفين ﴿فَاسْتَعْتَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥].

والتظاهر بالضعف والوهن من صفات اليهود التاريخية، فحتى اللحظة نراهم يروجون لمظلوميتهم رغم ما وصلوا إليه من قوة وتقدم، لكنها سمات ملازمة لهم أنى لها أن تبرحهم مع تعاقب الليل والنهار!

لنا أن نتخيل موسى عليه السلام في هذه اللحظة وهو يسترجع شريط الذكريات القاسية، يستحضر استضعاف قومه وتذبيح الأبناء واستحياء النساء على يد الفراعين، وكيف ألقته أمه في اليم خوفاً عليه من الذبح، وكان البحر أرق فؤاداً من هؤلاء المستبدين ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ ١١ ﴿فَاكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ ١٢ [الفجر: ١١-١٢].

نعم عاش عليه السلام في بيت فرعون؛ لكن قضيته كانت تعيش معه ولم تتركه، ولم تغيره النعمة كما تفعل بالكثيرين الذين يتخلون عن مبادئهم بإقبال النعمة عليهم متناسين أصولهم.

هذا أحد بني جلدته الذين طالهم ظلم الفراعين -أو هكذا ظن موسى عندئذ- يستنجد به عليه السلام لإنقاذه من أحدهم

فلا يتردد في نجدته، ويبدو أن الغضب قد سيطر عليه بشكل كبير ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

وأياً كان تعريف الوكر -على النحو الذي أوردناه سلفاً- فقد كانت النتيجة قتل المصري وبسرعة تفيدها الفاء ان في قوله عز وجل: (فوكزه - فقضى)، وعندها أسقط في يد موسى عليه السلام ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

وهذا يعني أنه لم يكن يقصد القتل بحال من الأحوال؛ لكن نزع الشيطان في يده، وهو ما جعله يستغفر ربه تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

ثم أخذ على نفسه العهد والميثاق ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

وبعض المفسرين^(١) على أن المقصود بالمجرمين في الآية السابقة هم فرعون وقومه الذين ساموا بني إسرائيل سوء العذاب، لكن السياق يحتمل أن يكون المقصود هو الإسرائيلي الذي استغاثه ثم تبين بعد ذلك أنه غويّ مبين، وبدل على ذلك ما حدث بعد ذلك عندما تبين موسى عليه السلام أن الإسرائيلي لم يكن مستحقاً للمساعدة وإلا لما ترك نجدته في المرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٤١/١٩، الكشاف، الزمخشري ٣/٣٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٢٦٢.

الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرَجْنَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِمَا كَانْتَ تَعْمَلُ ﴿٢٠﴾ [القصص: ٢٠].

فجأة وجد موسى عليه السلام نفسه بين خيارين كلاهما فيه مشقة كبيرة على نفسه:

❊ إما أن يظل في مصر ليلقى مصيراً مجهولاً غالبه القتل، أو تعرف حقيقته ويدوق الويلات كغيره من الإسرائيليين.

❊ وإما أن يتركها بما فيها من ظلم واستعباد حتى يأذن له الله بالعودة. فكان الخيار الثاني.

إلى هنا انتهت مرحلة القصر والترف، وبدأ عليه السلام مرحلة أخرى من المعاناة والشطف؛ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١].

وهنا يلجأ كعادته إلى ربه وخالقه تعالى الذي يلتجأ إليه وحده في النوازل والملمات. يذكره ربه بعد ذلك ﴿وَقَالَتْ نَفْسًا فَفَجِّنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]

ثالثاً: موسى عليه السلام في مدين:

يصف القرآن جانباً من رحلة موسى عليه السلام الشاقة هروباً من المصريين، ولنا أن نتخيل رجلاً عاش منعماً مترقياً يخرج من وطنه خائفاً إلى مكان مجهول لا يعرفه، يضرب القفار بلا رفيق ولا أنيس، يلتحف السماء ويفترش الأرض، ويتوجه إلى مدين

الثانية، ولو كان مستحقاً ما تردد لحظة في إجارته.

قتل المصري في سورة غضب موسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨].

وبينما هو كذلك إذا بالإسرائيلي نفسه ﴿الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨].

فبالأمس تسببت في مقتل المصري، واليوم تستعديني على آخر.. ويبدو أن الإسرائيلي استمد بعض القوة من وجود موسى عليه السلام فشرع في قتل عدوه ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩].

وتظهر الآيات أن القبطي كان على علم بما فعله موسى عليه السلام مع المصري السابق قتله وهو ما جعله يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

اضطرب موسى عليه السلام كثيراً وأحس أنه أصبح هدفاً لكل المصريين انتقاماً لقتيلهم، ويبدو أن خبر القتل وصل إلى فرعون الذي أمر بإحضار ربيب نعمته بعد أن عزز شكوكه التي ساورته يوماً بعد يوم؛ فقيض الله عز وجل له رجلاً جاءه ﴿مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَى سَعَى قَالَ يَا مُوْسَى إِنَّكَ

شمال غرب الجزيرة العربية، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

وكعادته يلجأ إلى ربه في وقت الشدة فيأتيه الفرج.

ما إن وصل عليه السلام إلى مساكن مدين حتى وجد الناس يسقون ماشيتهم، ونظر فإذا امرأتان تنتظران انتهاء الرجال من السقيا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣].

فأثار الموقف شفقتة، فتوجه إليهما وسألهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

فأبت شهامته ونبله أن يتركهما يزاحمان الرجال ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤].

ولأنه لا يترك مجالاً للشيطان فقد دعا ربه عز وجل ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

فالافتقار إلى الله غنى به عمّن سواه، ومن تكفل به في صغره فأنجاه من فرعون إلى قصره، سيجعل له من كل ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً.

جلس موسى عليه السلام يستظل من حرارة الشمس الحارقة وقد نسي المعروف

الذي صنعه مع البنتين؛ ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي بِدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

وهنا اختبار جديد له ثبت فيه حياؤه وأمانته، كما أثبت بأسه وقوته.

عادت البتان إلى أبيهما وقصتا عليه ما كان من الرجل الغريب الذي سقى لهما رغم الزحام الشديد؛ فأرسل في إحضاره، وحسب ما يبدو من الآيات فإن موسى عليه السلام قد آنس من صاحب البيت؛ ولذا حكى له ما حدث معه من قتل المصري والخروج من مصر، وهكذا الأرواح، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

فلا سلطان لفرعون على هذه الأرض التي نعيش فيها.

تكليف موسى عليه السلام بالنبوة

أتم موسى عليه السلام المدة التي اتفق على قضائها مع الرجل الصالح ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

فالآيات تتحدث عن عودته إلى مصر ومروره بـ(جبل الطور) بسيناء، والمسافر يأنس بالنار في الصحراء الموحشة ليلاً، لكونها تبدد بعض ما يداخله من خوف غريزي، ومن عادة أهل الصحراء أن يوقدوا النار لجلب الضيفان وهدايتهم في الظلمات، فذهاب موسى عليه السلام إلى النار - كما حكى القرآن عنه - كان لسببين:

الأول: السؤال عن الطريق التي سيسلكونها في عودتهم إلى مصر، فهو لم يغادر مدين منذ ثماني سنوات أو عشر، ومن ثم يلزمه الاهتداء في سيره بمن لهم دراية بالطرق.

الثاني: الإتيان ببعض النار لغرض التدفئة بالليل لاسيما أن هذه المنطقة معروفة حتى الآن ببرودتها الشديدة، حتى إن الثلوج لتتراكم عليها في بعض فترات الشتاء.

وهما الغرضان اللذان نصت عليهما الآيات الأخرى: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ

﴿أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

﴿سَنَاتِكُمْ مِنْهَا يَنْبَرِ أَوْ آتِيكُمْ بِسِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

ذهب موسى عليه السلام إلى النار - كما تحكي الآيات - لكنه لم يجد النار كما تصورها؛ بل كانت المفاجأة التي جعلته يضطرب، ويصور القرآن ما حدث: ﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودَى بِمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا أَخْتَرُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١١-١٦].

ولشدة الأمر وصعوبته جاء رد فعل موسى عليه السلام طبيعياً وغريزياً، فقد خاف عندما أمره ربه تعالى بأن يلقي عصاه فصارت حية عظيمة، فعندها ولى مدبراً لدرجة أنه لم ينظر خلفه كما تقول الآيات ﴿وَلَمَّا يَعْقِبْ﴾ من هول المفاجأة، وهو ما تشير إليه أكثر من آية: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمَّا يَعْقِبْ﴾ [القصص: ٣١].

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١]. و﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمَّا يَعْقِبْ﴾ [القصص: ٣١].

قال ابن عطية: «فلما رآها موسى رأى عبرة ولى مدبراً ولم يعقب؛ فقال الله تعالى

له: خذها ولا تخف، وذلك أنه أوجس في نفسه خيفة، أي: لحقه ما يلحق البشر»^(١).

وأراد المولى عز وجل أن يهدئ من روع نبيه عليه السلام فخاطبه قائلاً: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُوتِ﴾ [النمل: ١٠].

﴿يَنمُوتُونَ أَمِيلًا وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ [القصص: ٣١].

يقول البقاعي: «أي: التفت وتقدم إليها ولا تخف، ثم أكد له الأمر لما الأدمي مجبولاً عليه من النفرة، وإن اعتقد صحة الخبر بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ أي: العريقين في الأمن كمادة إخوانك من المرسلين»^(٢).

ولأن الله عز وجل يعلم طبائع النفوس التي جبلت عليها؛ فقد كان لا بد من استصحاب موسى عليه السلام لمعجزات حسية يخضع لها الفراعنة المعاندون، فوهبه معجزات، منها: معجزة العصا التي تحولت إلى حية مخيفة تسعى للدرجة التي أخافت موسى عليه السلام نفسه، ومعجزة اليد التي يدخلها في جيبه فتخرج مضيئة شاهقة البياض في مشهد تنخلع له القلوب النقية، يقول النيسابوري: «دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها»^(٣).

وفي القرآن الكريم حديث - كما أسلفنا - عن الحوار الذي دار بين موسى وربه تعالى، وكيف كان موسى عليه السلام يطنب في الكلام استثناساً بربه عز وجل، وحديث آخر عن معجزات سبع أخرى غير هاتين الآيتين لتبلغ تسع آيات وواضحات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿وَأَنزَلْنَا بِكَ فِي جَيْبِكَ مَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

قال القرطبي: «هي العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع، وفلق البحر. وقيل: البيئات التوراة وما فيها من الدلالات»^(٤).

وتنص الآيات على أن المستهدف من الآيتين فرعون وقومه، ﴿وَأَنزَلْنَا بِكَ فِي جَيْبِكَ مَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وفي موضع آخر ﴿فَلَنذريك بَرَهَاتَانِ مِنَ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

صدر التكليف الإلهي إلى موسى عليه السلام ﴿أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤]،

وليس فرعون فقط إنما جميع قومه، يبرز ذلك الخطاب الإلهي لموسى عليه السلام

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٣٠.

(١) المحرر الوجيز ٤ / ٤٢.

(٢) نظم الدرر ١٤ / ٢٨٠.

(٣) غرائب القرآن ٥ / ٢٦٨.

الجمرة؟

وقد اختلفوا فيها على قولين، أوجزهما
الفخر الرازي على هذا النحو:
الأول: كانت العقدة خلقة الله تعالى؛
فسأل الله تعالى إزالتها.

الثاني: السبب فيه أنه عليه السلام أخذ
الجمرة فجعلها في فيه. وهؤلاء اختلفوا
فمنهم من قال: لم تحترق اليد ولا اللسان؛
لأن اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة،
واللسان آلة الذكر، فكيف يحترق؟! ولأن
إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمرود،
وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي
في التنور فكيف يحترق هنا؟!
ومنهم من قال: احترقت اليد دون اللسان
لثلا يحصل حق المواكلة والمالحة.
ومنهم من قال: احترق اللسان دون اليد؛ لأن
الصولة ظهرت باليد، أما اللسان فقد خاطبه
بقوله: يا أبت. ورأي أنهما احترقا معا لثلا
تحصل المواكلة والمخاطبة^(١).

ونظرًا لتهافت قصة التمرة والجمرة التي
ذكرها بعض المفسرين على النحو الذي
تقدم؛ فالراجح أن العقدة لم تكن حسية في
لسانه؛ وإنما قصد بها -والله أعلم- الرهبة
التي ألمت به من التكليف وهذا الأمر تعضده
الآيات التي أشارت إلى خوفه عليه السلام
في غير موضع؛ بل بلوغه درجة الجري من

(١) مفاتيح الغيب ٢٢ / ٤٣ - ٤٤ بتصرف.

﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ آلَا
يَنْقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠-١١].

دعا موسى عليه السلام ربه مستعينا به
كعادته في الشدائد والكرب طالبًا منه أن
يشرح صدره بالطمأنينة، ويسر له أمره حتى
يتمكن من أداء دعوته ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي
صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ [طه: ٢٥-٢٦].
وكان له رجاء ان تتم المهمة على أفضل
ما يكون:

الأول: أن يحل عقدة لسانه حتى يتمكن
من التبليغ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا
قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

الثاني: أن يشد أزره بأخيه هارون ﴿وَأَجْعَلْ
لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهَذَا أَرْزَى
﴿٣١﴾ وَأَشْرَكَ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾
وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩-٣٥].

فجاءت الاستجابة الفورية فقال تعالى:
﴿قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ
لَكَ مَا سَأَلْتَنَا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا
وَمَنْ أَتَّبِعَكُمَا أَلْتَلِيُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾﴾
[مريم: ٥٣].

والحقيقة أن الطلب كان محل جدال
كبير، فقد اختلف المفسرون في ماهية
العقدة، وهل هي معنوية أم مادية بسبب من

شدة الخوف، وعليه يكون المراد من قوله تعالى ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

هو: لا يكاد يأتي بيينة أو حجة حسية على صدق رسالته، ويكون المراد بالفصاحة في قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَكَرُوثٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] هي الفصاحة الناجمة عن الشجاعة ورباطة الجأش، فمن الناس من يفقد القدرة على توصيل فكرته في الأوقات العصيبة... والله تعالى أعلم.

أعرب عليه السلام عن خوفه من هذا التكليف فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونُ﴾ [الشعراء: ١٤].

وفي موضع آخر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونُ﴾ [القصص: ٣٣].

قال البيضاوي: «ولهم علي ذنب: أي تبعة ذنب... والمراد قتل القبطي، وإنما سماه ذنباً على زعمهم... فأخاف أن يقتلوه به قبل أداء الرسالة، وهو أيضاً ليس تعلقاً؛ وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة، كما إن ذلك استمدادٌ واستظهار في أمر الدعوة»^(١).

والبيضاوي هنا كغيره من المفسرين الذين يحتاطون في نسبة الذنب إليه عليه السلام تأدباً رغم أنه قد استغفر ربه فغفر له ما كان من قتل القبطي.

إن خوف موسى عليه السلام هنا خوف

مشروع تقتضيه الطبيعة البشرية، وليس خاصاً به وحده دون غيره، وفي آية أخرى أن هارون عليه السلام قد أعرب عن خوفه هو الآخر ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ [١٥] ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [١٦] [طه: ٤٥-٤٦].

فالخوف في ذات الأنبياء ليس بالعيب وهو الأمر الذي قرره القرطبي عندما ذهب إلى القول بأن «الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله، وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسלט من شاء على من شاء»^(٢).

ويقول الإمام ابن تيمية: «وقول القائل هذا بمنزلة هذا، وهذا مثل هذا، هو كتشبيه الشيء بالشيء يكون بحسب ما دل عليه السياق، لا يقتضي المساواة في كل شيء، وكذلك هنا هو بمنزلة هارون فيما دل عليه السياق، وهو استخلافه في مغيبه كما استخلف موسى هارون، وهذا الاستخلاف ليس من خصائص علي؛ بل ولا هو مثل استخلافاته، فضلاً أن يكون أفضل منها، وقد استخلف من علي أفضل منه في كثير من الغزوات، ولم تكن تلك الاستخلافات توجب تقديم المستخلف على علي إذا قعد معه، فكيف يكون موجباً لتفضيله على علي؟ بل قد استخلف على المدينة غير واحد،

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٩٢.

(١) أنوار التنزيل ٤/ ١٣٤.

دعوته عليه السلام لفرعون وقومه

أولاً: معالم دعوته عليه السلام:

استجاب موسى عليه السلام لتكليف ربه تعالى وأتى فرعون يطلب إليه ترك بني إسرائيل ليخرجوا من مصر، ولم لا وقد سامهم العذاب الأليم سنوات طويلة ذبح فيها الأبناء واستحى النساء؛ وجاءت ساعة المواجهة فزاد فرعون من تكبره وتعجبه ونادى فيمن حوله ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَكُنْ عَلَ الْعَلِيِّ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

إنه لم يكتف بالكفر وإنكار وجود الله؛ بل لجح في طغيانه وادعى الألوهية ﴿فَحَسْرَتًا فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤].

وأمعن الفرعون في صلفه وغروره، ونادى في قومه قائلاً: ﴿الَيْسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

فبدلاً من شكر المنعم الذي وفر له أسباب المعيشة الكريمة من أنهار تفيض بالخيرات فتخرج أزواجاً من نبات شتى؛ نسب هذا الفضل إلى نفسه وراح يدعي أنه الإله الأحق بالعبادة دون الله تعالى،

وأولئك المستخلفون منه بمنزلة هارون من موسى من جنس استخلاف علي^(١).

والحديث كما رأينا يدل دلالة واضحة أن الاستخلاف هنا يثبت أفضلية وتكريماً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا يثبت له خلافة النبي صلى الله عليه وسلم، وتنقل لنا كتب الأحاديث والسير أن النبي استخلف عدداً من الصحابة الكرام في مناسبات عدة، منهم صحابة مشهورون وغير مشهورين، من هؤلاء المستخلفين: عثمان بن عفان في غزوة ذي أمر بنجد، وعبد الله بن أم مكتوم الضرير رضي الله عنه الذي استخلفه في غزوة بدر الكبرى، وسباع بن عرفطة رضي الله عنه، وسعد بن عباد رضي الله عنه في غزوة الأبواء، وعثمان بن مظعون رضي الله عنه في غزوة بواط، وأبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه في غزوة العشيرة، وزيد بن حارثة رضي الله عنه في غزوة بدر الأولى، وأبو رهم كلثوم بن حصين الغفاري رضي الله عنه، ورغم ذلك لم يقل أحد إن النبي صلى الله عليه وسلم قد استخلف عثمان، ومن ثم تحقق له خلافته قبل أبي بكر وعمر، ولا طالبت قبائل هؤلاء الصحابة وأهلهم بحقهم في الخلافة بناء على استخلافهم السابق.

(١) منهاج السنة النبوية ٧/ ٣٣٠-٣٣٢.

يقتصر على الحاكم المدعي للألوهية دون
الملا ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾
﴿٢٦﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَيْتْ
فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكُّبْ بِكُلِّ سَحَابٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٧].

بينما ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٨﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ
فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّبْ بِكُلِّ سَحَابٍ
عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٢].

حتى العقاب الذي سنه فرعون لمن
يخرج عن نطاق عبادته جاء بإيعاز ممن
حوله، ففي القرآن: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ
فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذَرُكَ وَأَهْلَكَ قَالَ سَنُنْفِثُ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَجِيءُ
نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾
[الأعراف: ١٢٧].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا
أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ
وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ ﴿٢٥﴾
[غافر: ٢٥].

في هذه الظروف كان على موسى عليه
السلام أن يدعو فرعون إلى أمرين كما في
الآيات:

﴿فَأَنبِأَهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
بَنِي إِسْرٰهٖلَ وَلَا تَعْبُدْهُمْ قَدْ حٰشٰنَا بِمَا يَكْفُرُونَ مِن رَّبِّكَ﴾

وأراد أن يدلس على من حوله من الملا
أصحاب المصالح فطالب موسى بآيات
محسوسة ﴿فَقَوْلًا أَنبِئْ عَلِيًّا أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ
أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰئِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾
[الزخرف: ٥٣].

وكان آيات فرعون في الخلق مبهرة
ظاهرة للعيان.

ثم بلغ به الجنون مداه حين طلب من
هامان طلباً عجيباً مستحيلاً لكنه وجد من
يصدقه ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ [الزخرف: ٥٤].

لقد قال لوزيره هامان الذي يزين له
الجنون: ﴿أَبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ
﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمٰوٰتِ فَاطَّلِعَ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَى
وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

ولخص رؤيته العقديّة والسياسية في
قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا
سَبِيلَ الرَّشٰدِ﴾ [غافر: ٢٩].

إنه جنون العظمة الذي يجعل
المهووسين والموتورين يبيدون كل شيء
من أجل الكرسي!

إن طفيان فرعون وادعاء الألوهية لم ينشأ
من فراغ؛ وإنما كان نتاج مساندة الملا الذين
يزينون للحاكم سوء عمله ليحافظوا على
مكائنتهم ومصالحهم التي يدورون معها
أيما كانت، ولا عجب أن تتطابق آراء الملا
مع آراء الفرعون، فاتهام موسى بالسحر لم

ومكانته التي لا يمكنه أن يتخلى عنها بحال ليتساوى مع الدهماء وأراذل القوم كما كان ينظر إليهم، فضلا عن خوفه من مكر بني إسرائيل به إذا خرجوا من مصر؛ إذ كان بإمكانهم أن يتحدوا مع أعداء مصر في الخارج.

ثمة إشكالية تثار حول رسالة موسى عليه السلام تتعلق بشريحة المدعويين، فهل أرسل إلى بني إسرائيل فقط أم إلى المصريين أيضًا؟!

إن موسى -والله أعلم- لم يرسل إلى عامة المصريين؛ بل إلى بني إسرائيل فقط، لكنه لم ينس أن يدعو فرعون وقومه إلى التوحيد بدلا من عبادة الفرعون، فما كان له أن يفوت فرصة يدعو فيها إلى الله وينكر عليهم ضلالهم، يقول الطاهر ابن عاشور: «والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدل على أن موسى أرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمة مستقلة؛ بأن يث فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد لأنه يجب عليه تغيير المنكر الذي هو بين ظهرائه وأيضا لأن ذلك وسيلة إلى إجابته طلب إطلاق بني إسرائيل»^(٢).

فشريعة موسى عليه السلام قصد بها

وَأَسَلَّمْ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٨﴾
[طه: ٤٧-٤٨].

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيََا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾
[الشعراء: ١٥-١٧].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٥﴾﴾
[الأعراف: ١٠٤-١٠٥].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾
[الزخرف: ٤٦].

فإرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون كما تشير الآيات كان لغرضين: دعوته وقومه إلى الإيمان بالوهمية الله الخالق بدلا من عبادة الفراعين، وتخليص بني إسرائيل من أسر فرعون وعذاباته. يقول ابن جزري: «فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وتسريح بني إسرائيل»^(١).

وكلا الأمرين ليسا في مصلحة فرعون؛ لأن فيهما تهديد لملكه المستبد العضوض

(٢) التحرير والتنوير ١٦ / ٢٣٠.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٨ / ٢.

وتذكيرهم بأيام الله، وشكر المنعم الذي أنجاهم من عبودية فرعون واسترقاقه لهم.

ثانياً: أساليب دعوته عليه السلام:

تبوأ قصة موسى عليه السلام من القرآن مكانة لا تدانيها قصة أخرى، وأظهرت الآيات الكريمة كيف نوع موسى من أساليب دعوته لتناسب مع الواقع وتطوراته وأحداثه المتلاحقة منذ أن تم تكليفه من رب العزة تعالى وحتى خروجه مع بني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون وقومه.

وكانت آيتنا العصا واليد أول المعجزات التي أيد بها موسى عليه السلام في دعوته لفرعون، كما قال تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ بِدَعْوَةِ رَبِّكَ أَلَّا تَهْتَفِيَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي كُنْتَ تُعْتَفِئُ فِيهِ لَئِذَا دُعِيَ لِلْحُكْمِ أَنَّ قَدْ كُنْتَ فَاحِشٌ وَإِذْ يُضَاهِي عَادٌ إِثْرَ يُوشَعَ بْنِ نَائِمٍ لَأَقْبِرَنَّكَ يَا غَارِقُ وَكُلَّامُ الْكَلْبِ الَّذِي يَتَّبِعُ أَهْلَكَ أَيَّامًا يَدُورُ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَلْفًا مِائَةً وَمَنْ يَكْفُرْ أَكْثُرُ﴾ [القصص: ٣٢].

ثم عزز الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات معجزات، يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مَوْسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقوله: ﴿وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ يَبِضًّا مِنْ غَيْرِ سُوِّهِ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

لكن البعض يعد الآيات المعجزات التي

بنو إسرائيل دون غيرهم، وفي القرآن آيات تعضد هذا الرأي بقوة، وتقول بخصوصية الرسالة واقتصارها على بني إسرائيل، منها:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٢].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [٥] وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَوْجَعْتُمْ مِّنْ آوَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْعِيكُمْ أبنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَبَآئٌ لِّمَن رَّبَّهُمْ عَظِيمٌ [٦] وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُمْ لِيَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [٧] وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ [٨]

[إبراهيم: ٥-٨].

ففي الآيتين الأولى والثانية يقطع القرآن بأن التوراة نزلت وتوجه خطابها التكليفي إلى بني إسرائيل، وفي الآية الثالثة بيان تكليف الله عز وجل له بدعوة قومه وإخراجهم من الظلمات إلى نور الإيمان

للدعاة الذين يجب أن يكون هناك تكامل بينهم ويقوم كل منهم على ثغرة.
٢. اللين والشدة.

يخبرنا القرآن كيف أن الله تعالى طلب من موسى وهارون أن يعاملا فرعون بالحسنى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

يقول البقاعي: «فقولاً له قولاً لئناً لثلاث يبقى له حجة، ولا يقبل له معذرة لعله يتذكر ويعلم أن الله ربه، وأنه قادر على ما يريد منه، فيرجع عن غيه فيؤمن، أو يخشى: أي أو يصل إلى حال من يخاف عاقبة قولكما لتوهم الصدق فيكون قولكما تذكرة له فيرسل معكما بني إسرائيل»^(١).

إن طبيعة المرحلة آنذاك كانت تتطلب أن يلين موسى عليه السلام قوله لفرعون عسى أن يهديه إلى ربه، كما أمرهما بأن يقولاً ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].

وفي حديثه تعالى عن السلام ترغيب له وطمأنة لقلبه وقلوب قومه قاطبة، كما ينقل القرآن صيغة أخرى للين في قول الله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾ [النازعات: ١٨-١٩].

فماذا كان رد فعل فرعون المستبد
(١) نظم الدرر ١٢/ ٢٩٠.

تحدث عنها المؤرخون والمفسرون أكثر من تسع على النحو الذي سيبينه المبحث التالي.

وقد عرض القرآن لأهم الأساليب الدعوية التي اتبعها موسى عليه السلام، ومنها:
١. توظيف الطاقات البشرية.

على النحو الذي ورد في المبحث السابق، فعندما كلف الله تعالى موسى عليه السلام بالرسالة طلب إليه أن يشد أزره بأخيه هارون قائلاً: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي﴾ [شوديه: ٣٠] ﴿أَشَدُّ دِينًا مِنِّْي﴾ [٣١] ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [٣٢] ﴿كَيْ تَسْبِحَ بِكَ كَثِيرًا﴾ [٣٣] ﴿وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا﴾ [٣٤] ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٥].

فجاءت الاستجابة الفورية من الله تعالى: ﴿قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦].
﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ أَغْلِبُونَ﴾ [٣٥].
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمٰنِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [٥٣].

[مريم: ٥٣].
ويمكننا من خلال هذه الآيات أن ندرك كيف عمل موسى عليه السلام على توظيف قدرات أخيه في الدعوة للوصول إلى أقصى استفادة ممكنة، وحسب نص الآيات فقد أراد توظيف قدرة هارون الكلامية في تبليغ الدعوة والدفاع عنها، وفي ذلك درس

وقومه؟!؟

أبى فرعون واستكبر ورمى موسى بتهم منها القديم المكرر كالكذب والسحر والجنون، ومنها غير ذلك، نحو:

﴿التأمر لإخراجهم من أرضهم: ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

﴿الكذب والتدليس: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَّانَ وَقَدَرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

﴿السحر والجنون: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات: ٢٨-٢٩].

﴿إضلالهم عن دين آبائهم: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتِلْكَ إِنَّا كَذِبَةٌ وَإِنَّا لَكَاكِبَةٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٨].

﴿القول ببشريته: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدَدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

لكن الحقيقة الواضحة أن الذي جعلهم يحجمون عن الإيمان بالوحدانية هو الكبر.

وقد أشار القرآن إليها في مواضع منها:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتِلْكَ إِنَّا كَذِبَةٌ وَإِنَّا لَكَاكِبَةٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٨].

وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ

يَمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ [يونس: ٧٨].
﴿فَأَسْتَكْبِرُوا وَكَانُوا كَالْقَوْمِ الْعَالِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون: ٤٦].

﴿وقد روت وفرعون وهندك ولقد جاءهم موسى بالبينت فاستكبروا في الأرض وما كانوا سعيقت ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩].

لقد شق على نفس فرعون أن يؤمن لعبيد من بني إسرائيل الممتهنين أن يدعي النبوة ويطلب تعبيد الناس لرب سواه، فكيف يكون مصير ملكه العريض إذا آمن بوحدانية موسى؟!؟

أما الملاء فقد خافوا على مصالحهم المرتبطة بالبلاط الفرعوني؛ ومن ثم تواطأ الجميع على موسى؛ لأنه يهدد مصالحهم رغم يقينهم بنبوته!

ولما لم يجد فرعون وسيلة ناجعة لرد موسى عليه السلام وصرفه عن الرسالة هدد قائلاً: ﴿سَنَقْبِلُ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَعِجِبُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وعندما قال لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١].

رد عليه موسى قائلاً: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْنَ مَسْجُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

قال أبو عبيدة: «أي: مهلكًا»^(١)، فمقام

(١) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/٣٩٢.

[الشعراء: ٢٥-٢٧].

فتوجه موسى بالخطاب هذه المرة إلى
الملا بعد أن كان سجلاً مع فرعون ﴿قَالَ
رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ تَقُولُونَ
﴾ [الشعراء: ٢٨].

وقريب من ذلك ما ورد في سورة طه
﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴿٤١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ
الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمْنَا مِنْ رَبِّي فِي كِتَابٍ
لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكًا لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾
كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي
النُّهَى ﴿٥٤﴾ مِنَّا خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نُفَيْدُكُمْ وَمِنَّا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٤٩-٥٥].

وينقل لنا القرآن أنه أراد إحراج موسى
عليه السلام أمام الملا وتذكيره بتربيته داخل
قصره وهو الأمر الذي يستوجب الشكر
والخضوع لا الجحود والخروج، كما ألمح
إلى قتل المصري وهروبه ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنَّينَ ﴿١٨﴾ وَقَعَلْتَ
فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨-١٩].

فأقر موسى بفعلته ولم ينكرها:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَزَرْتُ
مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّ عَلَىٰ أَنْ عٰبَدْتَنِي بِحٰقِّ

اللين في الدعوة يختلف عن مقام الشدة في
المدافعة، ومقام الترغيب يختلف عن مقام
الترهيب.

ولما لم يجد موسى عليه السلام فائدة
ترتجى من وراء فرعون وقومه بعد إصرارهم
على الكفر قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ
وَمَلَآئِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا
عَنْ سَبِيْلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلٰى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلٰى
قُلُوْبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوْا حَتّٰى يَرُوْا الْعَذَابَ الْاَلِيْمَ ﴿٨٨﴾﴾
[يونس: ٨٨].

وهنا بدأت موجات العذاب تجتاح
الفراعة على النحو الذي سيفصله المبحث
التالي عن آيات موسى عليه السلام
ومعجزاته.

٣. قوة الحججة والاستدلال العقلي.

تنبئ الآيات القرآنية عن قدرة موسى
عليه السلام على الجدل وقوة الحججة، كما
تكشف عن صدقه مع نفسه وغيره، فلقد
كان أول ما قاله فرعون لموسى حين دعاه
إلى التوحيد: ﴿وَمَا رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣].

فأجاب موسى: ﴿رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا اِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِيْنَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٤].

ثم أمعن فرعون في الضلال فاتهم
موسى بالجنون ﴿قَالَ لِمَنْ حٰوِلَةٌ اَلَّا تَسْمَعُوْنَ
﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّكُمْ رَبِّيْ ؕ اٰبَاؤِكُمْ الْاَوَّلِيْنَ ﴿٢٦﴾ قَالَ
اِنْ رَسُوْلُكُمْ الَّذِيْ اُرْسِلَ اِيْكُمْ لَمَجْنُوْنٌ ﴿٢٧﴾﴾

إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ [الشعراء: ٢٠-٢٢].

رغم قوة حجة موسى مع فرعون إلا أن الأخير لم يجد بداً من التهديد بالسجن، وتلك عادة أهل الباطل عندما يضيق عليهم الخناق فلا يستطيعون تبرير أفعالهم أو مواصلة المجادلة بالباطل:

قال فرعون: ﴿لَئِنِ اتَّخَذَتِ لَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ ﴿٢١﴾ [الشعراء: ٢٩]

قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٠﴾ [الشعراء: ٣٠]

قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [الشعراء: ٣١]

وهنا بدأ موسى في إظهار الآيات:

﴿فَأَتَى عَصَاهُ فَإِنَا هِيَ تَعْبَانُ مُبِينٌ﴾ ﴿٣٢﴾ [الشعراء: ٣٢]

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ [الشعراء: ٣٣]

ثم انتهى المشهد بإيمان السحرة، وربما أيضاً بإيمان امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، فالقرآن لم يقص علينا شيئاً عن الوقت الذي آمن فيه هؤلاء برسالة موسى عليه السلام.

مرت الأيام والفراغة يراوغون موسى، ويعدونه بأن يؤمنوا له ويتبعوا دينه ورسالته قائلين: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فابتلاهم الله بالعذابات المختلفة على

النحو الذي ذكرناه في المبحث الخاص بالمعجزات، لكنهم لم يؤمنوا في النهاية ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ [يونس: ٨٣-٨٩].

آيات موسى عليه السلام ومعجزاته

في مواجهة فرعون وقومه الذين استخفهم فرعون فأعماهم عن الحق، ثم في مواجهة بني إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل وجدالهم جدالاً عقيماً ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء: ٤٦].

لقد ورد في موضعين بالقرآن الكريم أن الله عز وجل عزز نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات معجزات.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِئْسَ الْإِسْرَافِيَّةَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوِّهِ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَافِرًا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

لكنك إذا ما عدت الآيات المعجزات التي تحدث عنها المؤرخون والمفسرون لوجدتها تتعدى التسع.

لكن تفسيراً مغايراً يفسر الآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِئْسَ الْإِسْرَافِيَّةَ﴾ بعيداً عن فكرة المعجزات ويقصد بها بعض الأحكام التي جاءت بها شريعة موسى عليه السلام (٣).

ثمة خلاف في تحديد الآيات التسع، فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها:

من الناس من لا يؤمن لنبي ولا برسالة إلا برؤية آيات معجزات حسية ملموسة يراها رأي العين، فإذا جاء نبي من الأنبياء ومعه معجزة من المعجزات الباهرة فلا يملك أصحاب العقول والأفهام الحصيفة إلا أن يؤمنوا.

يقول النيسابوري: «دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها» (١).

ويقول صاحب الظلال: «وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى! ذلك أن الإنسان أسير حواسه، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيراً في تصوراته عما تدركه حواسه. وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة» (٢).

لكن الحقيقة أن هناك على مر التاريخ من ينكر المعجزات والآيات استكباراً في الأرض وعتواً كما فعل المكذبون من قوم نوح وصالح وغيرهم. وفي القرآن الكريم ثمة إشارات إلى بعض الآيات المعجزات التي زود الله تعالى بها موسى عليه السلام

(١) غرائب القرآن ٥/ ٢٦٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٦٦.

بدأت المعجزات أو الآيات المعجزة لموسى عليه السلام باثنتين كما في الآية ﴿أَسْأَلُكَ بِدَعْوَى جَدِّكَ إِذْ نَادَى بِأَبْنَاءِ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ وَيَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ وَأَوَّاهُوا فَأَوَّاهُوا بِكَلِمَاتٍ لِيَكُونَ لَهُمْ عِلْمٌ بِيَوْمِهِمْ﴾ [القصص: ٣٢].

والبرهانان هنا حسب ما ذكر القرطبي: العصا واليد^(٤) لكن تكذيبهم فاق كل التصورات ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَاتِهِ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَعْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وهنا أرسل الله عز وجل عليهم من الآيات ما فيه عذابهم. يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ليس هذا فحسب، لكن هناك آيات أخرى عني بها بنو إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل، منها:

• الموت بالصاعقة ثم الإحياء: ففي القرآن ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّوَاعِقُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [٥٥] ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [٥٦]. [البقرة: ٥٥-٥٦].

«يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات. وقال الضحاك: إلقاء العصا مرتين عند فرعون، ونزع يده، والعقدة التي كانت بلسانه، وخمس آيات في الأعراف: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وقال آخرون نحووا من هذا القول، غير أنهم جعلوا آيتين منهن: إحداهما الطمسة، والأخرى الحجر.

ومنهم من جعلوا اثنتين منهن: إحداهما السنين، والأخرى النقص من الثمرات.

ومنهم من جعلوا السنين، والنقص من الثمرات آية واحدة، وجعلوا التاسعة تلقف العصا ما يافكون^(١).

وكلها - كما رأينا - مما ورد في القرآن ذكره.

أما الطاهر ابن عاشور فقال إنها: «بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حية، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز، والقحط»^(٢).

وجمعها الفيروز آبادي في قوله^(٣):
عصا، سنّة، بحر، جراد، وقمل
دم، ويد، بعد الضفادع طوفان

(١) المصدر السابق ١٧/٥٦٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/٢٢٥.

(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي ١/٧٠٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٢٨٥.

﴿١٧١﴾ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

[الأعراف: ١٧١].

على أن البعض قد اعتبر تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام أعظم معجزة له، والحقيقة أنه وإن كان في التكليم تكريماً إلهياً غير مسبوق لنبيه بيد أنه لا يعتبر معجزة في مواجهة قومه، ذلك أن ما دار بجانب الطور أمر يخصه لم يشهده غيره، ولا يمكن تصديقه إلا ممن آمن له بالفعل، وإلا فكيف لمن كذبه أن يؤمن بتكليم ربه، في حين يكذب بالآيات الأكثر ظهوراً كالعصا واليد. يتجلى التأثير الإيجابي لهذه الآيات الإلهية المعجزة في قصة سحرة فرعون الذين جيء بهم لمجابهة معجزة عصا موسى عليه السلام، فجاؤوا وليس أحد أحرص منهم على إرضاء فرعون ونيل جائزته وقربه، لكن المعجزة التي رأوها - وهم من أسحر الناس - جعلتهم يقرون بنبوة موسى إذ لا قبل لهم بما جاء به من معجزة العصا الحقيقية لا التي تعتمد على إبهام الناس على غير الحقيقة، وينقل لنا القرآن كيف تحول هؤلاء السحرة في لحظات من خندق الكفر إلى خندق الإيمان ﴿قَالَ أَمْسُدْتُمْ قُلُوبَكُمْ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ آيَاتُنَا وَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

﴿١٧٢﴾ وَاللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَللَّيْلِ عَلَيْكُمْ أَلَمٌ مِمَّنْ لَمْ يَلِدْ وَأَنْتُمْ لَا تعلمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

﴿١٧٣﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٣﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿١٧٤﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٤﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿١٧٥﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٥﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿١٧٦﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٦﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿١٧٧﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿١٧٨﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٨﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿١٧٩﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٩﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿١٨٠﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٨٠﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿١٨١﴾ فَاتْرِكُوا آلَ لَيْسَانَ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِمَّنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٨١﴾ [البقرة: ٥٩].

كُنَّا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ [الشعراء: ٤٩-٥١].

وهكذا يفعل الإيمان بالقلوب النقية الصافية، بينما يستمر الجاحدون على جحودهم لا يؤمنون رغم وضوح الآيات وإبهارها!

موسى عليه السلام والسحرة

لم تثمر دعوة موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان بالله الخالق بعد أن تساءل الأخير بعنجهية ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْؤُسِي﴾ ﴿٤٩﴾ [طه: ٤٩].

ورد موسى بثقة المؤمن بربه وخالفه ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿٥٠﴾ [طه: ٥٠].

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الشعراء: ٢٤].

واشتد النقاش وتساءل فرعون مرة أخرى في صلف، فأجاب موسى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقَى﴾ ﴿٥٣﴾ [طه: ٥٣].

وهنا لم يجد فرعون بداً من اللجوء إلى سلطته وقوته الغاشمة التي لا يعرف غيرها، وتلك عادة الطغاة الذين لا يحتكمون إلى قواعد العقل والمنطق وإنما تتجاوز أحلامهم سقف المعقول ﴿قَالَ لَيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُوتِ﴾ ﴿٣١﴾ [الشعراء: ٢٩].

لكن موسى عليه السلام فاجأه مرة أخرى بتحدٍ ملموس ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُؤَيَّنٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [الشعراء: ٣٠].

ولم يتوقع فرعون حجم التحدي فقال

من فورهِ: ﴿فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١].
 وهنا ألقى موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [١٠٧] وَزَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ [١٠٨].
 أم سوقا كانوا يتزينون فيه (١) أم كان يوم احتفالهم بفيضان النيل (٢) ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [٣٨] وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ [٣٩] لَعَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا مِنْكُمْ أَلْفِيلِينَ [٤٠] [الشعراء: ٣٨-٤٠].

كانت الآياتان مبهرتين لفرعون ومن حوله؛ لكنه اعتاد الاستكبار واعتادوا المذلة والمهانة، ومن ثم ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٤] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ [٢٥] [الشعراء: ٣٤-٣٥].
 إن فرعون هنا يحشد الناس ويشحنهم معتمداً على إعلامه المضلل الذي جعل من موسى النبي عليه السلام ساحراً مجنوناً، ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [٣٨] وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ [٣٩] لَعَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا مِنْكُمْ أَلْفِيلِينَ [٤٠] [الشعراء: ٣٨-٤٠].

ويبدو أنه اعتاد تسخير شعبه دون مقابل في حين تكتظ خزائنه بالأموال المقدسة، ومن ثم اشترط السحرة أن يتقاضوا أجراً عن هذا العمل ﴿قَالُوا لَيُزْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [٤١] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِينَ الْمُقْرَبِينَ [٤٢] [الشعراء: ٤١-٤٢].

وهكذا الحكام الجائرون لا يتركون طريقاً إلا سلكوه في سبيل تثبيت أركان ملكهم العضوض.

وبدأ المشهد الأول من المواجهة العلنية بين موسى عليه السلام والسحرة الذين جاؤوا لإبطال سحره، وخيره السحرة ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْتَمِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

ففرعون هنا يبحث عن غطاء وظهير له في مواجهته مع موسى عليه السلام بعد أن اتهمه بالسحر، وتلك أول مرة يقر بأن هناك شعباً له سيادة وقرار؛ بل يحدثهم بصيغة لا عهد لهم بها ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [٢٥]! ولن يعدم البطانة التي تسول للحاكم كل الشرور ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [١١٣] يَا تَوَكُّ بِكُلِّ مَسْجِدٍ عَلِيمٍ [١١٢] [الأعراف: ١١١-١١٢].

اتفق الطرفان على مواجهة علنية في يوم معلوم يحشد فيها كل طرف قوته ويشحن همته ﴿قَالَ مَوْعِدْكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشِرَ النَّاسَ صُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وسواء أكان يوم الزينة يوم عيد لهم،

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/٣٢٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/٢٤٦.

وهنا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ﴾

[يونس: ٨٠].

ونشط السحرة للمنازلة وكلهم ثقة أنها محسومة لا محالة لهم، ولم ينسوا أن يقسموا بفرعون أن الغلبة ستكون لهم، فليس أحب إليهم في هذا الآن من إرضاء الطاغية وإعلاء شأنه بين قومه ﴿قَالِقُوا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ رَبِّنَا إِنَّا لَخَائِفُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

ويبدو أن موسى عليه السلام هو الآخر لم يتوقع أن تظهر عصي السحرة كثناعيين أو حيات، والحقيقة أنها لم تكن حيات حقيقية لكن خيل للحاضرين من السحر أنها تسعى، يحكي القرآن ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصَتْهُمْ يَحْيَلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦].

يقول ابن عطية: «والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أن الحبال والعصي كانت تتقل بحيل السحر وبدس الأجسام الثقيلة المياعة فيها، وكان تحركها يشبه تحرك الذي له إرادة كالحيوان، وهو السعي فإنه لا يوصف بالسعي إلا من يمشي من الحيوان، وذهب قوم إلى أنها لم تكن تتحرك؛ لكنهم سحروا أعين الناس، وكان

الناظر يخيل إليه أنها تتحرك وتتقل»^(١).

لكن الآيات توضح أن موسى عليه السلام قد خاف وهاله سعي العصي؛ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧].

قال البيضاوي: «فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته على ما هو مقتضى الجبلة البشرية، أو من أن يخالغ الناس شكاً فلا يتبعوه»^(٢). وهنا يأتي التثبيت الإلهي له فيزداد ثقة بربه ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

وترصد آيات سورة يونس تغير لهجة موسى عليه السلام بعد التثبيت حيث قال لهم: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطِلَةٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢].

[يونس: ٨١-٨٢].

يقول صاحب الظلال: «لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق، ومعهم الباطل. معك العقيدة، ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه، ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالقوة الكبرى، وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً»^(٣).

ويأتي النداء مرة أخرى ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾

(١) المحرر الوجيز ٤/٥١.

(٢) أنوار التنزيل ٤/٣٢.

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢٣٤٢.

حَيْثُ أَنْ ﴿١١﴾ [طه: ٦٩].

وإمعاناً في تضليل الجماهير المحتشدة
يتهم السحرة بالتآمر عليه مع موسى
﴿لِكَيْرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

وامتثل موسى عليه السلام للأمر
فألقى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾
[الأعراف: ١١٧].

ويتوعددهم غاضباً ﴿فَلَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ
وَلَنْغَلْنَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

وهنا فجأ السحرة أن الحية العظيمة
قد ابتلعت حبالهم وعصيهم فلم يبق لها
أثر على الأرض؛ فأيقنوا أن عدوهم ليس
بالساحر العليم كما قال فرعون، لكنه نبي
جاء بمعجزة باهرة واضحة، فلا يعرف
السحر إلا من يمارسه، ﴿فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَيَطَّلِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَتَلَبَّوْا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَبْرِينَ
﴿١١٩﴾ وَالْقَى السِّحْرَةَ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾
[الأعراف: ١١٨-١٢٢].

وهو التهديد الذي كان كفيلاً بإثناء
هؤلاء عن الدين الجديد، أو حتى المواربة
بكتم الإيمان إلى وقت تقوى فيه شوكة نبي
الله ومن معه؛ لكن الإيمان قد تغلغل في
قلوبهم في لحظة صدق مع أنفسهم ﴿قَالُوا
لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ
لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾
[الشعراء: ٥٠-٥١].

﴿وَمَا نُنْفِقُ مِنَّا إِلَّا آتَاءَ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ
﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

لقد تولد لديهم إيمان يقيني لا يقبل
الشك بنبوة موسى عليه السلام، فأعلنوا
إيمانهم دون النظر إلى ردة فعل فرعون
الذي لا يعرف الاستسلام ويأبى الهزيمة؛
لأن نفسه المتكبرة لا تستسيغ أن يؤمن لنبي،
فضلا عن أن يكون من بني إسرائيل الذين
يستعبدهم ويستعملهم في أشق الأعمال
وأحطها، ولذلك فقد صاح فيهم متهماً
إياهم بالتواطؤ مع موسى ﴿ءَأَمَّنْتُمْ بِهِ قَبْلَ
أَنْ آدَأَنَّ لَكُمْ إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ
لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣].

يقول ابن قيم الجوزية: «ولما تمكن
الإيمان من قلوبهم علموا أن عقوبة الدنيا
أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما
يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان
أعظم وأنفع وأكثر بقاء»^(١).

إن هذا النموذج الإيماني الفريد الذي
ضربه سحرة فرعون ليؤكد أن القلوب
الصافية من الخصوبة بحيث ينبت فيها
الإيمان ويتعرع؛ بل ويثمر في لحظات

وهكذا أهل الباطل لا يسمعون إلا
صوت أنفسهم.

(١) الصواعق المرسله، ابن القيم ٤/١٣٨٩.

نجاه موسى عليه السلام ومن معه

ظل فرعون وقومه يكابرون ويجادلون رغم يقينهم بصدق موسى ودعوته ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

وبلغ فرعون الجنون مداه حيث ادعى الألوهية فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَمَكِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

وهذا حال المهووسين بالسلطة لا ينظرون إلا في مرآة أنفسهم فلا يرون غيرها، وإن استعانوا فإنما يستعينون برؤوس جهال كهامان وغيره.

لم يقر فرعون بالهزيمة أمام موسى عليه السلام والسحرة وازداد عتواً، وازداد الفراعنة تحريضاً على الإسرائيليين ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَبَدْرُكَ وَهَاهُنَا قَالِ سَنُقْتِلُ أبنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وزادوا في عتوهم وتحريضهم وقرروا مواصلة الإبادة الجماعية لأبناء المؤمنين ﴿قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥].

معدودات، فما هم يتحولون إلى مجابهة فرعون بجبروته وصولجانه قائلين: ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَسَنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَمَانًا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَنفَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مِنْ بَابِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُمُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْمِنًا فَدَعِمِل الصَّلَاحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٢-٧٦].

قال البقاعي: «أي إنما حكمك في مدتها على الجسد خاصة، فهي ساعة تعقب راحة، ونحن لا نخاف إلا ممن يحكم على الروح وإن فني الجسد، فذاك هو الشديد العذاب، الدائم الجزاء بالثواب أو العقاب» (١).

إن قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كل فصولها ومراحلها تمثل صورة الصراع الأزلي بين الحق والباطل، لكن ذروته تتجلى في هذا المشهد المفعم باليقين حين يتمكن الإيمان من القلب، وسيظل سحرة فرعون مضرب المثل في الإيمان بالحق والدفاع عن العقيدة، كما سيظل فرعون مثالا حيا للتكبر والعجب بالرأي واتباع هوى نفسه التي أوردته المهالك.

(١) نظم الدرر ١٢/٣١٣.

يَوْمَ مِنْ آيَاتِهِ لِنَسْرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يَمْؤُومِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

ولما تضاعف عليهم العذاب لم يجدوا إلا أن يلجؤوا إلى موسى ليكشف عنهم الضرر مع وعد منهم بأن يؤمنوا ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَا عَهْدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٥].

ضاقَت السبل بفرعون ولم يجد وسيلة لإيقاف الدعوة الجديدة، فالقتل والتشريد والسحل والتعذيب لم يجد مع أتباع موسى نفعاً، ومن ثم يحتاج إلى تغيير خطته، فكان التفكير في وسيلة ناجعة يتخلص بها من هذا الذي يورق ملكه وملك أبنائه من بعده، فكان قراره بالتخلص من موسى نفسه متناسياً أن الفكرة لا تموت وأنه مهما تضافرت المحن سيظل هناك مؤمنون يضحون من أجل الدين بأغلى ما لديهم؛ فقال: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٣٦﴾ [غافر: ٢٦].

إنه يتحدث إلى قومه كأنهم أصحاب قرار، والحقيقة أنهم لم يكونوا يوماً أصحاب قرار في هذا الحكم الاستبدادي؛ إنما أراد

لعلهم يرجعون، فلم يجد موسى مطالبة قومه بالصبر إلى يوم يفتح الله عز وجل عليهم بالتمكين والنصر ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

فاض الكيل بموسى عليه السلام ومن معه من تكذيب فرعون وقومه الذين أعلنوا في تحدٍ صارخ لنبوته ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَاتِهِ لِنَسْرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يَمْؤُومِينَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٢].

فأرسل الله تعالى على الفراعنة سوء العذاب، وجاءتهم آيات العذاب الواحدة تلو الأخرى لعلهم يرجعون، ويسجل لنا القرآن الكريم صوراً شتى من هذه العذابات التي ذكرنا بعضها عند الحديث عن آيات موسى ومعجزاته.

يقول عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٤٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا

أن يحشد الرأي العام كله ضد النبي الجديد ومن معه ليتوقفوا عن الإيمان به رغبا أو رهبا.. إنه يستعدي جزءا من الشعب على جزء آخر اختار الإيمان بالرسالة الجديدة. ولأن الدنيا لا تعدم الخير مهما علا شأن الباطل وأهله؛ فقد انبرى رجل مؤمن في موطن الفساد ومعطن الاستبداد مدافعا عن موسى عليه السلام ومتحدثا بلغة العقل والمنطق، وقد قص القرآن ما كان منه.

يقول عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنْ يَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنْ يَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

﴿٢٤﴾ [غافر: ٢٨-٣٤].

ضاق موسى عليه السلام بفرعون وقومه فدعا قائلا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيْنَ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوْا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ [يونس: ٨٨].

وفي النهاية لم يؤمن له ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: ٨٣].

وقد اختلف في المراد بالذرية في الآية، يقول البيضاوي: ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ قَوْمِهِ ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل: الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامراته آسية وخازنه وزوجته وماشطته على خوف من فرعون وملائهم أي: مع خوف منهم، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذرية أو للقوم^(١).

حانت ساعة النجاة فجاء الأمر الإلهي إلى موسى عليه السلام ﴿ فَأَنشَأَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ [الدخان: ٢٣].

فالليل ستر لكل من فر من عدو يترصص

(١) أنوار التنزيل ٣/ ١٢١.

يخاف لحاق فرعون وجنوده إلا أن الخوف قد عاوده مرة أخرى، لكن سرعان ما ازداد ثقة بخالقه الذي كثيراً ما لجأ إليه في ملماته؛ فصار مصدر اطمئنان لقومه بعد تسلل الرعب إليهم، ويصور القرآن هذا المشهد.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْرُوكُونَ ﴿١١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَزِيدُنِي ﴿١٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٣].

وعندها مر موسى وقومه وخاطبه ربه قائلاً: ﴿وَاتْرِكْ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الدخان: ٢٤].

«وفي ﴿رَهَوًا﴾ وجهان: أحدهما ساكناً أي: لا تضربه ثانيةً واتركه على هيئته من انتصاب الماء وكون الطريق يبساً. وذلك أن موسى أراد أن يضربه حتى ينطبق خوفًا من أن يدركهم قوم فرعون، والله تعالى أراد أن يدخل القبط البحر ثم يطبقه عليهم. وثانيهما: أن الرهو الفجوة الواسعة أي: اتركه مفتوحًا منفجرًا على حاله» (٢).

في اللحظة التي بدأ البحر ينطبق فيها على فرعون وجنوده بعد اجتياز موسى عليه السلام ومن معه وبدأت المياه في الارتفاع قال فرعون: ﴿وَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]؛

به، وقوله تعالى ﴿يَلَا﴾ يرد الرواية القائلة إن اتفاقاً جرى على أن يترك فرعون موسى وقومه يخرجون من مصر حتى يتخلص من العذابات التي أحاطت بقومه غير أن فرعون حنث بعهده وأتبعهم هو وجنوده؛ ولو كان هذا الرأي صحيحاً لما نصحوا بالخروج ليلاً كما نقل لنا القرآن الكريم، كما إن الرواية التي تذهب إلى أنه تبعهم بعد أن علم بأن نساء اليهود قد استعاروا الحلبي من المصريات على أن يعيدوه ثم خرجوا به (١). هي رواية متهافة تستحيل عقلاً فكيف يعير المصريون حلبيهم النفيسة اليهود الممتهين في ذلك الوقت؟!

وأمر موسى عليه السلام من قبل ربه ﴿فَأَضْرِبْ لَهمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

وهكذا يكون للعصا دور آخر جديد، فبعد أن كانت حية تسعى صار منوطاً بها شق البحر بإذن الله تعالى، لكن فرعون وقومه لم يكونوا ليذروهم يخرجون من مصر دون ملاحقة، ﴿فَاتَّبَعُوهمْ مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

﴿فَاتَّبَعَهُمُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ [يونس: ٩٠].

ورغم أن الله عز وجل طمأن موسى بالألا

(١) انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص ٢٥٧.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٠٥.

الله عليه وسلم بصيامه ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى؛ قال: فأنا أحق بموسى منكم؛ فصامه وأمر بصيامه) (٣).

بل كان حريصًا على صيامه حرصه على صيام الفريضة ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: (ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى صيام فضله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء وهذا الشهر يعني شهر رمضان) (٤).

إن نهاية فرعون وهامان وجنودهما المستحقة تجعل المؤمنين يثقون بنصر ربهم وصدق موعوده لهم بأن القهر والاستبداد مهما طال بهم فسيأتي اليوم الذي يسعدون به وتقر أعينهم ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

وتلك هي سنة الله تعالى في خلقه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي

لكن توبته المزعومة لم تكن لتتفعه في هذا الوقت؛ لأنها لم تكن عن إيمان وقناعة وإنما كعادة قومه الذين طلبوا من موسى أن يكشف عنهم الرجز ووعده بالإيمان به حال كشفه، وسرعان ما عاودوا الكفر وحتشوا بالعهد، وقد أراد من وراء ذلك أن يدفع عن نفسه الغرق، ولا يلتفت إلى ما قاله البعض من أن فرعون عندما رأى البحر قرر عدم الولوج غير أن جبريل مكر به، فأقبل على فرس أنثى، فأدناها من حصان فرعون، فطفق فرسه لا يقر؛ فما ملك فرعون فرسه أن ولج على أثره (١)، فلو صدقت نية فرعون في عدم متابعة موسى لصحت توبته، فالله لا يظلم الناس شيئًا.

وهنا جاء الرد الإلهي الحاسم ﴿وَالَّذِينَ وَقَدِ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١١) ﴿فَالْيَوْمَ تُجِيبُكَ بِيَدَيْكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ (١٢) ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (١٣) [يونس: ٩١-٩٢].

قال النيسابوري: «لتكون دليلا على كمال قدرتنا وعنايتنا. وإن من اتبع خواص عبادنا نجعله من أهل النجاة والدرجات بعد أن كان من أهل الهلاك والدركات» (٢).

ونظرًا لأهمية ذلك اليوم الذي نجى الله فيه موسى وقومه؛ فقد أوصى النبي صلى

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٦.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٣٦٠.

(٢) غرائب القرآن ٣/٦١٠.

موسى عليه السلام ورؤية ربه

واعد الله عز وجل موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر كانت بمثابة التهيئة لتلقي التوراة.

ففي القرآن الكريم ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ولم يترك بني إسرائيل وحدهم فطلب من أخيه هارون أن يكون خليفة له ونائباً عنه ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقد فصلنا أمر الاستخلاف ووجه استدلال الشيعة بحديث الإمام علي رضي الله عنه قبل ذلك.

ظل موسى عليه السلام أربعين ليلة اختلف حولها المفسرون؛ فقول: «إنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة وعشر ليال تنتم أربعين ليلة»^(١).

وقيل: إن المواعدة كانت في الأصل ثلاثين غير أنه تعجل قبل الموعد بعشرة أيام^(٢)، حتى كان اليوم الموعد الذي جاء لميقات ربه فطلب موسى من ربه أن يراه، وربما يتساءل البعض: كيف لموسى أن يتجاسر ويطلب من ربه طلباً كهذا؟!!

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/٨٦.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٢/٣٢١.

أَرْضَى لَهُمْ وَلَيَدَّبَّرْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْتًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

«الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لقال موسى: أرهم ينظروا إليك ولقال الله تعالى: لن يروني فلما لم يكن كذلك بطل هذا التأويل.

والثاني: أنه لو كان هذا السؤال طلبا للمحال لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمَ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

منعهم عنه بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

والثالث: أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال فأما أن لا يذكر شيئا من تلك الدلائل البتة مع أن ذكرها كان فرضا مضيقا كان هذا نسبة لترك الواجب إلى موسى عليه السلام وأنه لا يجوز.

والرابع: أن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى عليه السلام، أو ما آمنوا بها، فإن كان الأول كفاهم في الامتناع عن ذلك السؤال الباطل مجرد قول موسى عليه السلام، فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره موسى عليه السلام، وإن كان الثاني لم يتفجعوا بهذا الجواب؛ لأنهم يقولون له: لا نسلم أن الله منع من الرؤية، بل هذا قول افتريته على الله تعالى، فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة

يبدو -والله أعلم- أن كلام الله جل جلاله لموسى قبل ذلك وتقريبه له نجيا جعله يطلب من ربه هذا الطلب، ويقص علينا القرآن هذا الحدث: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ. قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

لكن جاء الرد الإلهي بأن ذلك لن يحدث، فقال سبحانه: ﴿لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقْرَمَ مَكَانَهُ. فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ولم يمس موسى نداء ربه بانتظار ما سيكون؛ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] من هول الموقف.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فبمجرد أن أفاق موسى نزه ربه تعالى عن أن تحيط به الأبصار ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأأنعام: ١٠٣].

وأحس موسى بالذنب عندما طلب رؤية الله فطلب التوبة، وأقر بالإيمان الكامل بربه وخالقه دون أن يراه.

ويبدو أن هناك من ذهب إلى أن موسى عليه السلام سأل الرؤية لقومه لا لنفسه.

وهو ما رده الفخر الرازي وقال بفساده لعدة اعتبارات:

وابتهال ودعاء ليكون منه ومنهم اعتذارٌ إلى الله عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلبٌ لكمال العفو عن بقي منهم»^(٤).

نادى الله نبيه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١٤٥) [الأعراف: ١٤٤-١٤٥].

وبصرف النظر عن عدد الألواح ونوع مادتها؛ فقد قال القرآن إنها احتوت من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وهو ما فسره ابن عاشور: «أي: كل شيء تحتاج إليه الأمة في دينها... والذي كتب الله لموسى في الألواح هو أصول كليات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام»^(٥).

والتوراة كما وصفها القرآن تضمنت تشريعات جديدة أحلت بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل.

يقول تعالى: ﴿وَمَصَدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُم بِآيَاتِهِ مِن رَّبِّكُمْ فَأَنْقُوا اللَّهَ

للقوم في قول موسى عليه السلام أرني أنظر إليك»^(١).

ومسألة الرؤية هنا أثارت إشكالية كبيرة ممتدة منذ قرون عديدة، وهناك جدل قديم دائر بين أهل السنة والمعتزلة حول إمكانية رؤية الله تعالى، فهي «عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلاً، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أن الشريعة قررت رؤية الله تعالى في الآخرة نصاً ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالاً وإنما سأل جائزاً»^(٢).

ثمة رأي يذهب إلى أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ومعه السبعون رجلاً مصداقاً لقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَلِدُّ أُنثَىٰ وَلَوْ أَنِّي كُنْتُ عَلِيمًا لَّفُكِّرْتُ بِهِمْ لَوْلَا رَحْمَتُ رَبِّي لَأَمَنَّ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا سِرًّا وَالَّذِينَ لَمْ يَعْلَمُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولَ لَمْ يَعْلَمِ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ومنهم من يذهب إلى أنهما ميقاتان وليس ميقاتاً واحداً^(٣).

يقول ابن عطية الأندلسي: «معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/٣٥٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٥٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/١٤٠،

التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/١٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٥٩.

(٥) التحرير والتنوير ٩/٩٧.

وَأَطِيعُونَ ﴿٥٠﴾ [آل عمران: ٥٠].

كما تضمنت أحكامًا تنظم حياة الناس ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمٌ﴾ اللَّهُ تَمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ [المائدة: ٤٣].

وهي كتاب هداية وإرشاد ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحَكِّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

كما تضمنت التوراة بشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَإِلَّا يُنصِلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاذِينَ ءَأْمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّابَعُوا التَّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ أَوْلِيكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي القرآن على لسان عيسى عليه السلام: ﴿يَبْنَى إِسْرَهُ بِلِ إِبْنِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وعاب القرآن على اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة وما جاء فيها وشبههم أسوأ تشبيه، يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ومن عجيب أمر بني إسرائيل أنهم لما نجاهم الله عز وجل من فرعون مصر وأراهم المعجزات والآيات واحدة تلو الأخرى طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلهًا صنمًا، ويحكي القرآن هذه المأساة الحقيقية.

يقول تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَهُ بِلِ السَّحْرِ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مِمَّا فِيهِ وَيُنصِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

ويبدو أن غياب موسى عنهم مدة الأربعين يومًا جعلهم يتخبطون وفي غيهم يترددون.

يقول البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْعَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٨٣﴾ [طه: ٨٣]: «أي: أي شيء أوجب لك العجلة في المجيء عن قومك وإن كنت بادرت بمبادرة المبالغ في الاسترضاء، أما علمت أن حدود الملوك لا ينبغي تجاوزها بتقديم أو تأخر؟!»^(١).

لكن موسى كان حسن الظن أكثر مما ينبغي فقال: ﴿هُمْ أَوْلَاءِ عَلَى أَنرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٥﴾ [طه: ٨٤-٨٥].

(١) نظم الدرر ١٢/٣٢٢.

لها الأثر الأكبر في قوم موسى، فهو من أقنعهم بأنهم في حاجة إلى إله يصنعونه من الذهب الذي جاؤوا به عندما خرجوا إلى سيناء، ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يُجِيبُهُمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وتلك آفة قديمة أن يدعي البعض احتكار الحقيقة دون غيره؛ فيسمع له من لا عقل له، ويخضع من لا حيلة له.

ويبدو أن بعضهم قد آب إلى نفسه وأفاق من سكراته قبل أن يرجع موسى عليه السلام إليهم، ويصور لنا القرآن مشهد ندمهم على هذا الضلال المبين.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَفَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَنَعْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

ويسجل القرآن مشهد عودة موسى عليه السلام الغاضب مما فعله قومه بجهلهم، وكيف كان عتابه على قومه وأخيه هارون شديداً.

يقول عز وجل: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعْمَلْتُمْ أَمْرًا رَّبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿قَالَ نَهَوْنُ مَامَنْعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [١٣] ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [١٣] [طه: ٩٢-٩٣].

لقد أخبره الله تعالى بما كان من قومه الذين عبدوا العجل رغم نهي هارون لهم.

لكن ما سبب هذه الردة العقديّة؟! ويرجع الدكتور محمود مزروعة نزوع بني إسرائيل إلى عبادة العجل وقت غياب موسى إلى عدة أسباب أهمها: القاعدة التاريخية المعروفة بولع المغلوب بتقليد الغالب، وميل بني إسرائيل بطبيعتهم إلى تقديس المادية، وطول العهد الذي قضوه بين المصريين مما أساهم كثيراً من أركان دينهم^(١).

وتصور الآيات عودة موسى غاضباً من فعلة قومه الشنيعة ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [٨٦] ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارَاكَ مِن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتُمَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [٨٧] ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خِرَازِيمٌ فَعَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [٨٨] ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُجْعَلُونَ لِيَوْمٍ أَلَّيْمٍ﴾ [٨٩] ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ تَقْتُلُونَ بَنِيكُمْ الَّذِينَ هَدَىٰ رَبِّي إِلَيَّ بِطَرَفِ النَّبِيِّ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ أَنزَلْنَا لَهُمُ الْكُتُبَ وَاللَّهُ عَالِمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَىٰ﴾ [٩٠] ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِمِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [٩١] [طه: ٨٦-٩١].

والسامري هو كلمة السر التي كان (١) انظر: الدين وحاجة الإنسانية إليه، ص ١٥١.

من رفضوا عبادة العجل حتى لا يحدث شرخاً بين بني إسرائيل، وربما اقتتلوا؛ ومن ثم أثر أن ينتظر حتى يعود أخوه.

على أن الشيخ الطاهر ابن عاشور يقول: «وأما أخذه برأس أخيه هارون يجره إليه، أي: إمساكه بشعر رأسه، وذلك يؤلمه، فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عبدة العجل، واقتضاره على تغيير ذلك عليهم بالقول، وذلك دليل على أنه غير معذور في اجتهاده الذي أفصح عنه بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

لأن ضعف مستنده جعله بحيث يستحق التأديب، ولم يكن له عذراً، وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنما كان هارون رسولاً مع موسى لفرعون خاصة، ولذلك لم يسع هارون إلا الاعتذار والاستصفاح منه. وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد، ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقق التقصير»^(١).

فهو يرى أن اجتهاد هارون كان في غير محله، ومن ثم استوجب تعنيف أخيه.

وبعد أن توجه موسى بحديثه إلى قومه،

وقد روج بعض من لا يجيدون التعامل مع الخطاب القرآني أن هناك تواطؤاً من جانب هارون عليه السلام بدليل غضب موسى عليه السلام على النحو الذي أشارت إليه الآيات، لكن هذا ما ينفيه القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَأَسْلَمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

فموسى يعلم قبل أن يرجع إلى قومه أن سبب ضلال قومه هو السامري وليس هارون، وقد شرح الأخير ما حدث معه ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيَّانَ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشَيْتُ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

فالآيات هنا تشير إلى أن القوم تكالبوا عليه واستضعفوه وقت غياب أخيه، وصمموا على عبادة العجل رغم نصحه لهم ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [١٠] قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى [طه: ٩٠-٩١].

إن هارون كما يبدو من قوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

أثر أن يقدم النصيحة بلسانه للضالين من قومه دون أن يغير المنكر بيده ومعه بعض

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١١٦.

وأخيه والسامري وذهب عنه الغضب حمل الألواح ثانية ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبَ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

ثم إن الله تعالى توعد الذين أضلوا بني إسرائيل بعبادة العجل، مع ترك الباب مفتوحاً أمام من غرر بهم للتوبة والرجوع إلى الله، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢-١٥٣].

وقد تاب الله على من تاب منهم وعفا عنهم كما أشارت الآيات ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة: ٥١-٥٢].

ثم ما كان منه مع هارون، وحتى تتضح الصورة أكثر توجه بالخطاب إلى السامري الذي أضل بني إسرائيل وسول لهم عبادة العجل تشبهاً بالوثنيين ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْئِرُ ﴿١٥٥﴾﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿١٥٦﴾﴾ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ، وَأَنْظِرْ إِلَىٰ إِلْهَيْكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٥٧﴾﴾ [طه: ٩٥-٩٧].

ويفسر صاحب الظلال هذا الترتيب السليم في الاستجواب قائلاً: «عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها. إنما لم يتوجه إليه منذ البدء؛ لأن القوم هم المسئولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسئول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤمن عليهم. فأما السامري فذنبه يجيء متأخراً؟ لأنه لم يفتنهم بالقوة ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغفوا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولاً وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً»^(١).

وهكذا ينتهي موسى من مساءلة قومه

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٨.

موسى عليه السلام والعبد الصالح

رغم تكرار كثير من تفاصيل حياة نبي الله موسى عليه السلام في القرآن الكريم بشكل لافت للنظر إلا أن قصته مع العبد الصالح لم تذكر إلا في موضع واحد في سورة الكهف رغم انطوائها على دروس تربوية واجتماعية ونفسية ودعوية، لكن السورة لم تورد شيئاً عن سبب هذا اللقاء الذي جمع بينهما.

ثمة أحاديث نبوية مطهرة تكفلت بهذه الحلقة التي لم يتناولها القرآن، ففي الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينما موسى في ملائ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلي، عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه)»^(١).

ويبدو أن حديث موسى عليه السلام كان مفعماً بالمشاعر الرقيقة الجياشة التي جعلت العيون تدمع من صدق لهجته وصادق موعظته، ففي حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (موسى رسول الله ذكر الناس يوماً

حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب)^(٢). فسبب اللقاء كما في الحديث الشريف هو إعجاب موسى عليه السلام بعلمه عندما سئل إن كان هناك من هو أعلم منه أم لا؛ فأراد الله تعالى أن يعلم نبيه فجاء الأمر الإلهي إليه أن يتوجه إلى لقاء رجل حاز من العلم ما لم يحزه؛ فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون كما في الحديث السابق.

ولا يعول على ما ورد عن أهل الكتاب أن موسى هنا ليس موسى بن عمران النبي عليه السلام إنما هو موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ فليس في القرآن إلا ابن عمران النبي، ولو كان الأمر خاصاً بغيره لنبه القرآن على ذلك، ومن ثم فالسياق القرآني حاكم، فضلاً عن أحاديث صحيحة منها ما روي عن سعيد بن جبير، قال: «قيل لابن عباس: إن نوحاً يزعم أن موسى الذي ذهب يلتمس العلم ليس بموسى بني إسرائيل، قال: أسمعته يا سعيد؟ قلت: نعم، قال: كذب نوح»^(٣).

وفي ذلك يقول ابن كثير: «والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن، ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه، أنه

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الكهف، رقم ٤٣٨٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل العبد الصالح عليه السلام، رقم ٢٣٨٠.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى العبد الصالح، رقم ٢٤.

نَسِيًا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي جَدَاءٌ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ [الكهف: ٦١-٦٢].

يقول ابن قيم الجوزية: «لما سافر موسى إلى العبد الصالح وجد في طريقه مس الجوع والنصب؛ فقال لفتاه: ﴿إِنِّي جَدَاءٌ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ فإنه سافر إلى مخلوق. ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب فإنه سافر إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»^(٤).

كانت المفاجأة التي ينتظرها موسى عليه السلام؛ فقد قال له يوشع: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ [الكهف: ٦٣].

لكن موسى ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فَاصْصَلُوا ﴿٦٤﴾ [الكهف: ٦٤].

وهناك كانت اللقيا، وفي الحديث الشريف بعض تفاصيلها: (وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحملًا حوتًا في مكث، حتى كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما واناما، فانسل الحوت من المكث فاتخذ سبيله في البحر سرية، وكان لموسى وقتاه عجبًا،

(٤) بدائع الفوائد ٣/٢٠٣.

موسى بن عمران، صاحب بني إسرائيل»^(١). واختلف المؤرخون والمفسرون حول العبد الصالح اختلافًا لا يتسع له المقام حول اسمه ونسبه ونبوته؛ بل ذهب البعض إلى القول إنه حي لم يموت حتى الآن^(٢).

كما اختلفوا في المكان الذي سماه القرآن ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لكننا لن نتوقف كثيرًا أمام تفاصيل سكت عنها القرآن لحكم إلهية يعلمها الله، ونحاول ما استطعنا إلى ذلك سبيلا أن نحلق حول حزمة الآيات التي تناولت القصة والوقوف على ما تيسر من المقاصد والعبر.

تبدأ القصة ببيان حرص موسى عليه السلام ودأبه على طلب العلم امتثالًا لأمر ربه ﴿لَا أَبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

قال الفخر الرازي: «يعني: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ كما تقول: لا أبرح المكان»^(٣).

ثم يمضي موسى عليه السلام مع فتاه إلى المكان المقصود ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا

(١) البداية والنهاية ٢/١٧٠.

وانظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله، رقم ١٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/٣٦٥، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/٢٤٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/١٢١.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/٤٧٩.

عَلَّمَ مَا تَرْتَحِطُ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٨﴾ [الكهف: ٦٨].

لكن موسى الذي جعله ربه في موضع المتعلم قال للرجل: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ﴿٦٩﴾ [الكهف: ٦٩]. فأعطاه بذلك عهدًا أن يطيعه فلا يعصي أمره، وهو ما جعل الرجل يشترط عليه مرة أخرى إمعانًا في التأكيد ﴿إِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿٧٠﴾ [الكهف: ٧٠].

وفي الحديث: (فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجل مسجى بثوب، أو قال تسجى بثوبه، فسلم موسى، فقال العبد الصالح: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمك لا أعلمه، قال: ستجدني إن شاء الله صابراً، ولا أعصي لك أمراً).

ثم انطلقا لتبدأ رحلة الأعاجيب التي حكاها القرآن في قالب مشوق يجعل القارئ شغوفاً بما تؤول إليه الأحداث.

وفي الحديث (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعرف العبد الصالح فحملوهما بغير نول، فجاء

فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يجد موسى مساً من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به، فقال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُبْرَةَ وَوَأَنْسَيْتُهَا إِلَّا السَّيْطَانَ﴾ قال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

لقد وجد موسى عليه السلام ويوشع رجلا وصفه الله تعالى بأنه كان ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

فمن العلم ما يكون بالاجتهاد والتحصيل، ومنه ما يكون لندياً يهبه الله من يشاء من عباده، وفي كل الأحوال لا بد أن يقتزن العلم بالرحمة؛ بل تتقدم الرحمة على العلم؛ لأن المتعلم أسير عند معلمه، فكان الرفق به واجباً.

استأذن موسى عليه السلام العبد الصالح في تحصيل العلم على يديه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الكهف: ٦٦].

وهذا من آداب المتعلم أن يقدم الإذن بين يدي شيخه ومعلمه في تواضع وإخبات لا في كبر واستعلاء، لكن الرجل قال له: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٦٧﴾ [الكهف: ٦٧].

وبرر ذلك بقوله متسائلاً: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ

عصفورٌ، فوق على حرف السفينة، فنقر نقرةً أو نقرتين في البحر، فقال العبد الصالح: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر).

وهنا الدرس الأول لموسى: قصور علمه وضالته أمام علم الله تعالى.

كان من الطبيعي وبسبب عدم إحاطة موسى بحقيقة الأمر أن تورقه تصرفات الرجل المفاجئة، وكانت الصدمة الأولى عيفة عندما ﴿رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقَهَا يُنْفِرَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

فقد خان موسى عليه السلام ثباته الانفعالي ونسي عهده بعدم السؤال عن شيء؛ فاستنكر عليه خرق السفينة لإغراق أهلها رغم إكرام أصحابها لهما وحملهما بدون أجر، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! فذكره الرجل بالاتفاق ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

وسرعان ما أب موسى إلى نفسه وقدم الاعتذار بين يدي المعلم ملتصقاً: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرَهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣].

في الحديث: (فعمد العبد الصالح إلى لوح من ألواح السفينة، فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير نولٍ عمدت إلى سفيتهم

ثم إنهما انطلقا فقابلا غلاما فقتله العبد الصالح؛ فارتاع موسى عليه السلام وقال في استهجان: ﴿أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

عندها رد العبد الصالح: ﴿الَّذِي أَقْبَلَ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

تذكر موسى العهد فأعاد الاعتذار مرة أخرى طالباً الصفح؛ بل اشترط على نفسه قائلاً للخضر: ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

في الحديث: (فانطلقا، فإذا غلامٌ يلعب مع الغلمان، فأخذ العبد الصالح برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟).

ثم كان الموقف الثالث الذي جعله يفارق موسى، يحكي القرآن ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلَهَا فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧].

ويبدو أن مالهما قد نفذ أو كاد، أو أن موسى أراد للخضر أن يأخذ أجره بعد

النفوس المجبولة على الخيرية لا يمكنها أن تتغاضى عن إنكار المنكر مهما تكلفوا؛ لكن الواقع أثبت أن موسى لم يكن يعلم من الأمور إلا ظاهرها، لا كما العبد الصالح الذي أطلعه الله على بعض الغيبات فتصرف على هذا الأساس.

قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٦﴾ وَأَمَّا الْفُلَّةُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٧٧﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا خَيْرًا لِمَتْنُهُمْ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٧٨﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

[الكهف: ٧٦-٨٢].

وهكذا تكشفت المقاصد الخفية وراء هذه الأحداث الغريبة التي أصابت موسى بالقلق والاضطراب طيلة الرحلة؛ فأدرك حينها قصور علمه ووجوب التواضع وعدم نسيان نعمة الله عليه.

عدم تضيفهما في القرية، ومن ثم اقترح عليه قائلا: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

ولكن العبد الصالح رأى في ذلك إخلالا بالاتفاق المرسوم بينهما فبادر إلى الفراق ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٨].

ولم ينس أن يخبر موسى عليه السلام عن الحقائق الغائبة عنه حتى يحسن الظن به. وفي الحديث: (فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه، قال العبد الصالح: بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، قال: هذا فراق بيني وبينك) قال النبي صلى الله عليه وسلم: يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما).

بدأ العبد الصالح بيان الأسباب التي دعت إلى هذه التصرفات التي رآها موسى جرائم لا يمكن السكوت عنها، فأى عقل هذا الذي يجعله يصدق أن خيرًا خفيًا يكمن وراء خرق السفينة بدلًا من الوفاء لهم جزاء إحسانهم، أو قتل الغلام الذي لم يروا منه بأسًا، أو ترميم جدارٍ دون أخذ أجره عليه رغم سوء معاملة أهل القرية لهما؟!.

لقد نسي موسى عليه السلام أنه ذهب متعلمًا، ومن ثم أنكر عليه أفعاله؛ وهكذا

وساعة دخوله مدين، وأثناء عودته، ووقت مواجهته لفرعون لما دعاه ثم آذاه وتبعه حتى أغرق، وطول مخالطته لبني إسرائيل.

٤. المروءة من أخلاق العظماء التي تتجلى حينما يبذل الإنسان من وقته وجهده وماله ولا ينتظر جزاءً أو شكورًا من أحد، ولا يجر من النبلاء أن المروءة قد تصل بأصحابها إلى حد إهلاك المال والأنفس.

٥. للعمل قيمة عظيمة أدركها الأنبياء، فموسى عليه السلام لم يرض أن يكون عالةً على أحد، فعمل أجيرًا لسنوات طويلة، وقضى من عمره عقدًا كاملاً -أو أقل قليلاً- في خدمة صهره؛ لزوجه من ابنته، وهو الذي عاش في القصور لم يأنف خدمة الآخرين، ولكنه وطن نفسه لتحمل المشاق، وتغير أحوال الزمان، ودار مع أحواله جميعًا بالرضى.

٦. وفاء موسى عليه السلام مع الشيخ نموذج يحتذى به، فقد أدى ما عليه، ولم تزده الأيام إلا وفاءً لصهره ورب عمله؛ وكان من المحتمل بعد زواجه من ابنته أن يتبرم أو ينكث، ولكنه صبر على العمل حتى وفى ما عليه، وربما زاد عليه.

الدروس المستفادة من قصة موسى

١. إن عناية الله تعالى بموسى عليه السلام تجعل العاقل في اطمئنان لقضاء الله، فمن يتخيل أن ينجو الرضيع بالإلقاء في البحر، ويربى في بيت عدوه وعدو قومه الذي سيزول ملكه على يده، ويجعل زوجة الفرعون هي مريته وحاضته، والمصريون هم حاشيته وخدمه، وأمه هي مرضعته، فلا امتدت يد الذبح إليه، ولا هو فارق أمه، وقد رباه حتى شب من سيقف في وجهه يومًا؛ يدعوه إلى عبادة الله الواحد، ورفع نير العبودية عن بني إسرائيل.

٢. عاش موسى عليه السلام في بيت فرعون يرفل في النعيم لكنه لم ينس أصله وقضيته، فرعاية الله تعالى له وحفظه في بيت عدوه لم تكن من أجل حفظ موسى؛ بل لرسالة سيحملها ويكلف بتليغها إلى فرعون للخروج ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

٣. على المؤمن أن يستعين دومًا بربه ليهديه، فموسى عليه السلام كان دائمًا معتمدًا على ربه، محتاطًا في أمره، متخذًا الوسائل والأسباب المناسبة، استعان بربه وقت خروجه من مصر،

في الشدائد، وقد حاول موسى عليه السلام الاستفادة من قدرات أخيه في خدمة الدعوة.

١٠. تحول سحرة فرعون في لحظات من خندق الكفر إلى خندق الإيمان، وهكذا يفعل الإيمان بالقلوب النقية الصافية، بينما يستمر الجاحدون على جحودهم لا يؤمنون رغم وضوح الآيات وإبهارها، ولهذا على الداعية ألا ييأس من مدعويه، فما يدريك لعل عدو الأمس يصبح صديق اليوم.

١١. لا يجد المستبدون بدءًا من اللجوء إلى سلطتهم وقوتهم الغاشمة التي لا يعرفون غيرها، وتلك عادة الطغاة الذين لا يحتكمون إلى قواعد العقل والمنطق؛ وإنما تتجاوز أحلامهم سقف المعقول، فيبطشون بمن يعارضهم ولا ينزل على رأيهم، ويظنون أن قوتهم غالبية، ولكنهم يكونون في أضعف حالاتهم؛ إذ إن من يقف في وجوههم يكون أقوى منهم بإيمانه ويقينه وثباته.

١٢. ضاقت السبل بفرعون ولم يجد وسيلة لإيقاف الدعوة الجديدة، فالقتل والتشريد والسحل والتعذيب لم يجد مع أتباع موسى عليه السلام نفعًا، وبالتالي يحتاج إلى تغيير خطته، فكان التفكير في وسيلة ناجعة يتخلص بها

٧. كثيرٌ من الناس لا يؤمن إلا بما هو محسوس وملمس، وينكر ما لا يقع تحت حواسه، وهذا مجاف للواقع، وما لا يراه الإنسان أكثر بكثير مما يراه، ولو أنك ما لا يقع تحت حسه لأنكر ضروريات، ولخسر خسرانًا مبيتًا؛ فالجنة والنار غيب، والقيامة غيب، والملائكة غيب، فإذا أنكروا الإنسان ما جاءت به الرسل لعدم وقوعها تحت حسه، فالخسران والبوار في انتظاره عند تحقق ما كان ينكره.

٨. فارق بين الخوف المشروع والخوف المذموم؛ فطبيعة الإنسان قد تخاف وترهب بعض الأمور، فالإنسان يخشى على نفسه التلف والهلكة، ويخشى من بعض الحيوانات المفترسة، ويخاف على أولاده وذويه فيضعف عند الضغط عليه ومساومته، فهذه فطرة في معظم البشر، ولكن أصحاب الهمم العالية يتجاوزون خوفهم، ويستمدون القوة من الله تعالى، ولا ينجبنون، ويواجهون الشدائد بعزم وثبات.

٩. النسب غير مانع من الاستعانة في العمل لا سيما الدعوي طالما كان الشخص مهيبًا لذلك، فبه يكون شد العزم والتثبيت، وهو الخليفة والقائد في الغياب، وعليه يكون التعويل

الذي يسعدون به وتقر أعينهم ﴿ وَرِيدُ
أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ آيَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ
﴾ [القصص: ٥]. وتلك هي سنة

الله تعالى في خلقه ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ
فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ
أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ
كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
﴾ [النور: ٥٥].

١٦. الطبع يغلب التطبع، فقد عاود بنو
إسرائيل التمرد بدلا من شكر النعم،
ويحكي القرآن ما دار بين موسى عليه
السلام وقومه وكيف تبدلوا الخييب
بالطيب؛ فطلبوا عبادة العجل، واشتهاء
الدون من الطعام، كأنهم يتمردون
على ربهم الذي أنجاهم ممن كاد أن
يهلكهم، وقد نال موسى من قومه
شدائد عظيمة لا يقدر عليها إلا أمثاله
من أولي العزم.

١٧. أحس موسى عليه السلام بالذنب
عندما طلب رؤية الله فطلب التوبة،
وأقر بالإيمان الكامل بربه وخالقه دون
أن يراه، وهكذا المؤمن يؤمن بالغيب
إيمانا لا يتزعزع، ويثق فيما غاب عنه

ممن يورق ملكه وملك أبنائه من بعده،
فكان قراره بالتخلص من موسى نفسه
متناسيا أن الفكرة لا تموت، وأنه مهما
تضافرت المحن سيظل هناك مؤمنون
يضحون من أجل الدين بأعلى ما
لديهم.

١٣. الدنيا لا تعدم الخير حتى في أشد
الأمكن فسادا وعظما فقد انبرى رجل
مؤمن في بلاط فرعون المستبد مدافعا
عن موسى عليه السلام ومتحدثا بلغة
العقل والمنطق، محاولا الأخذ بيد
قومه إلى الحق والرشد، ومحذرا لهم
من عاقبة التكذيب والعناد، وضاربا
لهم المثل بالأمم السابقة وما حدث
لها جراء تجاهلهم للحق وتكذيبهم
أنبياءهم.

١٤. الحكام الجائرون لا يتركون طريقا إلا
سلكوها في سبيل تثبيت أركان ملكهم
العضوض، فيسلكون سبيل الحوار إن
كان يؤدي إلى ما يريدون، فإذا خاب
سعيهم بحثوا عن وسائل أخرى تحقق
مبتغاهم، حيث التهيب والترغيب،
ويكون في سيوفهم رهق دائما.

١٥. إن نهاية فرعون وهامان وجنودهما
المستحقة تجعل المؤمنين يثقون بنصر
ربهم وصدق موعوده لهم بأن القهر
والاستبداد مهما طال بهم فسيأتي اليوم

٢١. قد يعلو صوت الباطل مدة تطول أو تقصر، لكن يأتي اليوم الذي يتكشف فيه زيفهم، ويتنصر الحق الذي كان مستضعفًا، ويندحر الباطل الذي كان منتفشًا، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله، ويخزي أهل الباطل لا ريب.

كانه يعاينه طالما جاء به الخبر الصادق. وإذ لكل حادث حديث؛ فإن هناك من الأمور ما لم يأت وقته، فلا يصح أن نعجل عليها.

١٨. كان من العجب أن يتجه بنو إسرائيل إلى عبادة العجل، بعد أن رأوا إهلاك الله لعدوهم، وإنجاءهم لهم، وانفلاق البحر، وكلها مشاهد عجيبة لا تحدث في تاريخ البشرية إلا مرة واحدة، ثم يكون انطماس البصائر، والحنين إلى الشرك الذي كان عليه المصريون من عبادة الأوثان وترك توحيد الديان.

١٩. عصيان بني إسرائيل لموسى وعدم دخول الأرض المقدسة أوجب عليهم أن يقعوا في التيه جيلًا كاملاً؛ حتى يأتي جيل جديد يفعل ما أمره الله به، ولا يخاف أحدًا إلا الله، ويتبع أنبياءه وقادته الذين هم الأدلاء لهم إلى طريق الحق والنصر، فالعقوبة شديدة على قدر الذنب، والنصر يأتي مع الطاعة وبها.

٢٠. المسلم مطالب بالتأمل في مصير الأولين وأخذ العبرة والموعظة بعيدًا عن التفاصيل التي سكت عنها القرآن، وهو الأمر الذي عودنا القرآن إياه مع الأمور التي قد لا ينفع العلم بها، والجهل بها لا يضر.

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، التوراة، فرعون، الكتب المنزلة، مدين، النبوة